www.ibtesama.com/vb

رواية

نسخة معالجة
وصفحات فردية

يوسف يا مريم

يامي أحمد

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

دار اكتب

www.ibtesama.com/vb

التحويل لصفحات
فردية والمعالجة
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

يوسف يا مريم

www.ibtesama.com/vb

يوسف يا مريم
يامي أحمد
رواية
تصحيح لغوي : عبد الغفار الدقاق
تدقيق لغوي : د. إيمان الدواخلي
تصميم الغلاف : محمد عيد
رقم الإيداع : - ٢٠١٤/٩٢٢٩
-I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٢٩٥-١

دار اكتب للنشر والتوزيع
OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .
المدير العام : يحيى هاشم
هاتف : ٠١١٤٤٥٥٢٥٥٧ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨
E – mail :daroktob١@yahoo.com
Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة©
دار اكتب للنشر والتوزيع

www.ibtesama.com/vb

يوسف يا مريم

يامي أحمد

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

www.ibtesama.com/vb

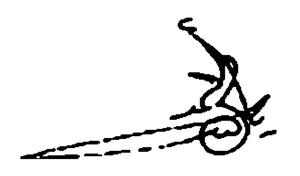


www.ibtesama.com/vb

إهداء

إلى بلدي وأهلي وأصدقائي، والأنثى التي لن أقوى على ذكر اسمها يومًا ..

محمود رمضان



www.ibtesama.com/vb



www.ibtesama.com/vb

الثالوث المحرم!

هذا السرُّ الذي يأخذني إلى التغني بالوفاء، هذا الحب الذي لم تقتل عذريته مقصات الفراق، هو حصيلة انبلاج دم الماضي الرقيق الذي كلما حل ضيفًا على الذاكرة أصاب المشاعر بدغدغةٍ تلطّف أجواء الحياة، يأخذني على بساط الريح إلى لفحة الربيع الملازمة لكل خريف، لأزهارٍ وأشجارٍ أغصانها القلب تنبت في أيِّ موسمٍ من حديقة الإنسان للإنسان، تلك الفترة التي أحببتكِ فيها هي ذخيرتي للأمام، لا تصيبني بأجواء الندب والحزن إن حضرت كالنسمة على شريط الذاكرة، بل بفخرٍ مبعثر التكوين من تراب وهواء ونار وماء...

إنَّ الإخلاص آيةٌ مقدسة أحفظها عن ظهر قلب، فمهما ابتعدتِ فأنا باقٍ على كلِّ جميل أمطرَ القدرُ رذاذه الليمونيّ على أريج أوجاعي، غلبتْني قسوةُ الفراق بينما عجزتْ أن تغلب قدسيّتك المرصّنة بأقفال اللازورد والمختومة بشمع الليالي الأخيرة..

تعلّمتُ من حبِّكِ أن أخلع عباءة الشرقيِّ المنسوجة بكل حبال الوعيد والتهديد بندمٍ خرافيِّ المجاز، كما تعلمتُ احترامَ الظروف التي لم يقوَ فأسها يومًا على هزيمة عقلك المملوء بالحياء..

www.ibtesama.com/vb

اطلالٌ من الأعذار أسكبها تحت قدميك، أنا الذي لم أستطعْ إعادة تكوين الطبيعية لأجل قلبك، ولم أستطعْ أن أصارع ثيران التقاليد لأجل أبديّة الوجود معك..

يأكلني الفكرُ كلَّ ليلةٍ يصبُّ الحنينُ جمره على شغاف قلبي، لكني أقاوم أيَّ وجعٍ ولا أغتاب ذكرك ولا أشوِّه شيئًا من حكايتنا التي يومًا ستصيبها شيخوخةُ العائلة..

هذا الذي أحبّكِ، لا يفقهُ من حبّكِ سوى حبًا يجنّدُ فيه ملائكةَ قلبِه لتحرسَ قلبكِ..

وها أنا سأترك تلك المدينة التي ضاقت بي، تلك الطرقات والأرصفة.. الدكاكين والأزقة.. الحدائق والمقاعِد.. العشّاق والمتسولين ... وكلَّ شيءٍ يذكّرني بك، لأهربَ وأبدأ من جديد..

ليس من الصعب أن أبدأ من الجديد، رغم أني سأترك كل غالٍ على قلبي لأكملَ تلك البداية..

لكنْ يا وجعي من حياة سأبدأها من دونك..

لا ذنب لي في شيءٍ سوى أنّي ابن تلك المدينة، مدينة باتت تحارب الحبَّ، رغم أنها هي من بثّته في ضلوعنا..

دعيني لا أخلط الأمور، مدينتنا جميلة، إنَّ حالَنا هو المنهك..

ما أقساه من وطن، كلما تعلّقتُ فيه اجتاحهُ احتلالٌ... احتلال أرضٍ، أو عرضٍ، أو مريم..

تلك هي لعنتي .... لعنةُ الثالوث المحرم.

www.ibtesama.com/vb

لم تجدْ ما يشبعُ شهيّتها من إجاباتٍ تشفعُ لها عن جرم السؤال العنيد: كيف يشعرُ بي ونحن بعيدان بمسافة الظروف، تقطعنا حواجزُ الغياب؟.

كان الجواب قريبًا من قلبها، بعيدًا عن عقلها يترنّحُ بين اعترافٍ بضعفٍ أو إنكارٍ لعذاب، كان تكون حرًا في اختيارِ أيِّ موتٍ تعيش؛ كانت تستغيث بذاتها الصوفيّة تناضل، تقاتل، وتمشي بقدميها على قلبها كي لا تعترفْ أنّه الحب..

لكن ماذا إذا كانت جذور الحبِّ متأصّلةً في نفسها كشجرة ريحونٍ، أو كجذور الزيزفون!

***

تناول قهوتَهُ، التي لا يثقُ عادةً بأن يعدّها أحدٌ غيره، تسلّح بالهدوء، اخذ يرتّب الطبيعةَ حولَهُ بما يتكيّف مع راحتهِ، وجلس على مكتبه يتتبّع أخبارها، كما تلاحق أجهزة المخابرات ناشطًا سياسيًا عبر الإنترنت، ويسافر معها من كرسيِّه، خلف شاشةٍ تسرق نصف عمرهِ، لكافة ضواحي الأرض، حتى يكادُ يحفظُ عن ظهر قلب كل حرف انطلق من شفتيها، وكل إيماءة ضعفٍ تصدر عنها.. إيماءاتٌ لا يلحظها غيره..

***

مريم امرأة شرقيّة، تتمتّع بكريزما سيدات الأعمال، تدير جمعيةً لحقوق المرأة، وتحضّر ماجستير في إدارة الأعمال.

www.ibtesama.com/vb

سيدةٌ برغماتية بعض الشيء، لا تترك للوقت مجالًا ليتحكّم بمسار حياقما، لا مساحة للعواطف في جوارحها، وإن وُجِدتْ فستبقى راكدةً ما من أمواجٍ تحرّكها..

فتاةٌ من الماضي، قلبها من بينة الجبل، لا يذيبهُ حرُّ الحبِّ مهما اشتدَّ، ولا تجمِّده برودته. ثابتٌ لا تحرّكه الريح مهما عصفت، ولا يجرفه السيل مهما جرى..

***

كان يمتلك قدرًا من المكر الميكافيليِّ، هو قارئٌ جيد لكل سيدات اللغة، كان يبحث عن حروف القوّة، ويلوّن بالقلم الفوسفوريِّ سطور الضعف في كتاباقن.

هي بالنسبة له أكبر تحدٍ، امراةٌ لا غروب في ملامح وجهها، هي حبُّهُ الأول الذي لم يعترفْ به يومًا، زهرةٌ في أوج نضجها يقف الزمان عند شباها، لا تذبل ولا يمرُّ الزمن ضدَّ تألقها وزينتها.

كان الوقت يمرّ من داخلها ينضج في عقلها لا في شكلها، يكبر في قلبها لا في طفولتها، هي مغرورةٌ على طريقتها..

***

اعتادت على الحذر من التكنولوجيا، تقترب منها بخبثٍ وتأنٍّ كي لا تخرجها من عالمها القديم، تحبّ الأغاني القديمة وتفضّل سماعها من المسجل لا على الحاسوب، تفضّل أشرطة الكاسيت، ولا تحبُّ الأسطوانات المدمجة..

www.ibtesama.com/vb

تصون ذكرياتها داخل ألبومها الجلديّ، وتنأى عن استخدام الذواكر الرقميّة، فالصيغ الإلكترونيّة تفقدنا لذّة الماضي والحنين. هي تحبُّ رائحة الكتب، وتفضّل الكتابة بالقلم الجاف عن لوحة المفاتيح..

عادةً ما يحدّثها الحبُّ سرًا قائلًا: لقد هرمنا، لقد هرمنا من حبٍّ لا أمل فيه!

***

بعد منتصف الليل، كان ينصت لسحر الاختلاف وتثاؤب القمر الذي يضفي على وجهه السكينة.

تناول هاتفه مستندًا إلى طرف السرير، وكتب رسالةً من كلمتين وأرسلها "اشتقتُ لك".

رسالة تنعش الماضي المكبوت، وتوقِظ الحبَّ الذي عاش معه منذ الطفولة، حبٌّ أبدع الشاعرُ الفلسطيني محمود درويش في وصفة بثلاث كلماتٍ وحرف:"رُزقتُ مع الخبز حُبّك.."

لم تكُن غايته مضمون الرسالة، بقدر ما كانت تفجيرُ زوبعةٍ من الأفكار، ليثيرَ فيها عواطف كعواصف تحرّك مياه الحبِّ الراكدة..

***

كان لديها حبٌّ صامت، غير معلن، أقفل صوتَه الكبرياءُ منذ أدرك عقلها الحياة.

لذا اعتادت رؤية الحبِّ ضربًا من ضروب الضعف أمام الرجل، تصارعُ ذاتها مرارًا كي تظهرَ بصورة المرأة القوية في ورش العمل المناديّة بحقوق المرأة، والتي تحرص عادةً على حضورها.

www.ibtesama.com/vb

هي ناجحة بالفعل، ولكن نجاحها هو سجنها الأوحد، فكلّما زاد نجاحُها زاد الألم.

تصفيق النساء حولها يخلق في كل ثانيةٍ مسافةَ ميلٍ من الرفض لفطرةٍ طبيعية، تكمن فى تجاذب الجنسين لبعض تحت لحاف الحب.

***

فكّر قليلًا، ثم قرّر إغلاق هاتفهِ ليعذّبها ظنونًا طوال الليل، إن هي أخذت تتصل به..

أكمل ليلته، تحسّس قهوته الباردة آخذًا منها ارتشافة ليخلد بعدها تحت اللحاف، ويشرع كعادته بتأسيس قواعد أحلامه معها إلى أن ينام..

***

حد التفكير تشتعل، شيئًا فشيئًا صارت كتوصيفٍ لزوبعة، لا تشاء أن تكون وحيدة مع فكرها، تعلم أن الصراع المحتدم ما بين القلب والعقل سيسلب من عينيها النوم، ويلقي بها خارج حدود مملكتها، كان القلب دائمًا مجسدًا بصورة يوسف، لكن عقلها دائمًا يرجح لكفة المجتمع وعائلتها..

اعتادت مريم أن تستمدَّ القوّة من تواجد الآخرين حولها، وضعفها هو وليد الخلوة مع نفسها..

عادت تحدّق بتركيز أكبر في ذكرياتها ببطء، نبشت في تلافيف الماضي، وتلابيب الطفولة، سيف من الحرمان، سهم مناجاة، وحبٍ

www.ibtesama.com/vb

عطف، ما نعكز عليه، حبٌ يقطف استقلاليتها، ويقصف نصفها.
.. هو حبٌ عالق منذ الطفولة، شاءت الأقدار أن يغيبَ ثم يعود جارفًا
مل الماضي.

ذلك العشق الذي كتب عليه أن يحتضر في رحم شبابه، لو اعترفوا
يوما بالحبّ، لصار أمل اللقاء ميعاد كفر..

***

قسم نصف الليل نومه بحدة التفكير، هكذا يستولي الحب المحرّم
والذي تتأرجح فيه الأحلام، ما بين ممكنٍ ومستحيل..

كان يتجنب الوقوع في الهاوية، ويحرص ألا ينقلبَ السحرُ على
الساحر..

لم ينجُ هذه المرة بفعلته، استولى على عقله شبح التفكير، وأغار
على نومه كجاثوم يعتصرُ صدره.

سأل بضعف لا يلحظهُ سواه، هل أغوتني من جديد؟!!؟

حينها تمكّنت منه ذاكرته، وعادت به إلى أول لقاء معها، جاء
بعد سنواتٍ من فراقها غير المعلن، يوم تركت ذاك الحيَّ الذي يقطن
به

مريم دائمًا ما يضعفُ الضعفُ أمام ضعفِها، وترجح كفّة العقل
بفارق كبير عن قلبها، تذكر جيدًا ذلك الجارَ الذي جاور طفولتها
والقربُ الآن منها محاولًا طيّ مرحلةَ الفراق.

عادت تلتقي به في الجامعة.. هذا الجار صاحبُ غرورٍ مشتهى
يجدها من جديد، وحديث الصبايا في الجامعة يأخذ مساحةً من
تواجدها معهن، كان يتعمّد التقرّب من صديقاتِها.

www.ibtesama.com/vb

كانت تدرك جيدًا قدرَته على التلاعب بالكلام، بما يشبع شهيّة الأنثى. لم تكُن تنظر إليه سوى أنّه مختلف، وأن صديقاتها متعطشات للحبّ، يتلهّفنَ لرجلٍ يسدُّ رمق الكبت بإيماءةٍ مسروقة، أو حتى بالمزاح.

***

لقاءٌ جمعهما من جديد في مكتبة الجامعة، ربما كان ذاك المكان الوحيد المصرّحُ فيه بالاختلاط مع الأنثى في قطاع غزة، وتحت أنظار عيون موظفي أمن الجامعة..

يذكر جيدًا الحديث الذي دار معها، حين علّق ساخرًا على كتاب نوال السعداوي في يدها، قائلًا بثقة الشرقيّ المبالغ بها: إنّ أفكارًا لا تقفُ بجانبك أو تساندك هي أفكارٌ هشّةٌ، لا تسمن ولا تغني من جوع.

كما يذكر ردّها الذي ما زال يطرق أذنيه: أفكاري طالما وقفت إلى جانبي، واغتصابكم لحقوقنا هو ما يثقل كاهلي، فإن كان هناك من هشاشةٍ فهي حتمًا فيك...... أنت.

"هل كان حضورَهُ قبل أسبوعين في ورشة العمل صُدفة؟، أم أنّه يريدني أن أراها كذلك" سألت نفسها.

كانت كلما فكّرت به، انتابها شعورٌ بالقلق، فلم يسبقْ لرجل أن زار قلبها المهجور، الذي كاد أن يمتلأَ بغبار الفراغ المضجر.

فبعد أن انتهت ورشة العمل، جاء ليلقي عليها التحية، وعندما مد يده مصافحًا، شعرت برجفةٍ في يده.

www.ibtesama.com/vb

عطف ما تعكّز عليه، حبٌ يقطف استقلاليتها، ويقصف نصفها.
.. هو حبٌ عالق منذ الطفولة، شاءت الأقدار أن يغيبَ ثم يعود جارفًا
كل الماضي..

ذاك العشق الذي كتب عليه أن يحتضر في رحم شبابه، لو اعترفوا
يومًا بالحبّ، لصار أمل اللقاء ميعاد كفر..

***

قسم نصف الليل نومه بحدة التفكير، هكذا يستولي الحب المحرّم
والذي تأرجح فيه الأحلام، ما بين ممكنٍ ومستحيل..

كان يتجنب الوقوع في الهاوية، ويحرص ألا ينقلبَ السحرُ على
الساحر..

لم يبحْ هذه المرة بفعلته، استولى على عقله شبح التفكير، وأغار
على نومه كجاثوم يعتصرُ صدره.

سأل بضعف لا يلحظهُ سواه، هل أغوتني من جديد؟!!؟

حينها تمكّنت منه ذاكرته، وعادت به إلى أول لقاء معها، جاء
بعد سنواتٍ من فراقها غير المعلن، يوم تركت ذاك الحيَّ الذي يقطن
به

مريم دائمًا ما يضعفُ الضعفُ أمام ضعفِها، وترجح كفّة العقل
بفارقٍ كبير عن قلبها، تذكر جيدًا ذلك الجارَ الذي جاور طفولتها
والهربَ الآن منها محاولًا طيّ مرحلةَ الفراق.

عادت تلتقي به في الجامعة.. هذا الجار صاحبُ غرورٍ مشتهى
عهدها من جديد، وحديث الصبايا في الجامعة يأخذ مساحةً من
تواجدها معهن، كان يتعمّد التقرّب من صديقاتِها.

www.ibtesama.com/vb

كانت تدرك جيدًا قدرَته على التلاعب بالكلام، بما يشبع شهيّة الأنثى. لم تكُن تنظر إليه سوى أنّه مختلف، وأن صديقاتها متعطشات للحبّ، يتلهّفنَ لرجلٍ يسدُّ رمق الكبت بإيماءةٍ مسروقة، أو حتى بالمزاح.

***

لقاءٌ جمعهما من جديد في مكتبة الجامعة، ربما كان ذاك المكان الوحيد المصرّحُ فيه بالاختلاط مع الأنثى في قطاع غزة، وتحت أنظار عيون موظفي أمن الجامعة..

يذكر جيدًا الحديث الذي دار معها، حين علّق ساخرًا على كتاب نوال السعداوي في يدها، قائلًا بثقة الشرقيّ المبالغ بها: إنّ أفكارًا لا تقفُ بجانبك أو تساندك هي أفكارٌ هشّة، لا تسمن ولا تغني من جوع.

كما يذكر ردّها الذي ما زال يطرق أذنيه: أفكاري طالما وقفت إلى جانبي، واغتصابكم لحقوقنا هو ما يثقل كاهلي، فإن كان هناك من هشاشةٍ فهي حتمًا فيك...... أنت.

"هل كان حضورَهُ قبل أسبوعين في ورشة العمل صُدفة؟، أم أنّه يريدني أن أراها كذلك" سألت نفسها.

كانت كلما فكّرت به، انتابها شعورٌ بالقلق، فلم يسبقْ لرجل أن زار قلبها المهجور، الذي كاد أن يمتلأ بغبار الفراغ المضجر.

فبعد أن انتهت ورشة العمل، جاء ليلقي عليها التحية، وعندما مد يده مصافحًا، شعرت برجفةٍ في يده.

www.ibtesama.com/vb

لقد حاول مرارًا أن يرسل لها طلب صداقة من خلال حسابها على أحد المواقع الاجتماعيّة، وكانت قد لاحظت أنّه كرّر الطلب وألغاه عدّة مراتٍ من نفسه..

كانت تحدث نفسها: "كيف لرجل أضناه البعد والجفا والزمن، أن تظلّ يدهُ ترتعش في يدي، إن لم يكُ هشًا أمامي!

ولمَ كنتُ سعيدة بأن أعطيهِ رقمي المحمول؟"

***

أمطرَ عليه الليلُ أسئلةً، هل هو تحدٍ، أم هو حبٌّ يُضعف صلابة الحديد؟ لماذا الحبُّ هو تجاذب التضادِ بين الضعف والقوة؟ يحاول أن يتجنّب رؤية الحبّ واقعًا في رحم الكبرياء، أو أن يعترف به أولًا..

التقمت أفعى موسى على أفاعي فرعونَ، ووقع في شَرَكِ غايتهِ، وعصفتْ جيوش التفكير به، وباءت كل محاولات هروبه بالفشل، حتى موسيقى الجاز التي أدمنها لم تُشف أرقه.

عاد الحبُّ المضمور ينفجر من جديد، عاد قويًا إثر لقاء عفوي، لا غاية له إلا لحكمة القدر فيه.

***

قد لا نستطيع أبدًا أن نتحكّم بعواطِفنا، وما يمكننا فقط هو أن نسيطر على طريقة ظهورها، أو أن ندفنها كي تموتَ حيّةً في داخلنا، ولكن إن استطاع أحدٌ أن يسمعَ نحيبها، فهو لا شك الحبيب.

أحبّتْ ما قاله عن موطنها الأصلي في فلسطين التاريخية "أحببت لاجلك يافا.." وأنّه لم يغازلْها كباقي النساء، بل غازل عقلها لا قلبها،

www.ibtesama.com/vb

يعرف ما تحبّ أن تسمع، ويعلم أنّها لن تسمح له بالمزيد من الكلام المعسول، رأت في ذلك منه ضعفًا واحترامًا أمام حضورها.

***

فتح هاتفه المحمول، على أمل أن يرى رسالةً منها، لكن سرعان ما انتابه قلقٌ مسموم بأول سهم أصاب كبرياءهُ. كان يؤمن بأن ليس من حقّ النساء تجاهله، لم يعطِ لنفسه أيَّ عذرٍ، ولم يفكّرْ بأنَ الرسالة ربما لم تصلْ إليها بعد.. فقط كل ما جال بخاطره أنها تمكّنت من كبريائهِ.

فغالبًا إن مسّت فتاةٌ كبرياء رجل شرقيّ، إما أن يمتهن احتقارها، أو أن يقع قتيلًا في حبها!..

***

تناولت هاتفها المحمول لتضبطَ المنبه وهي تحاول أن تطردهُ من عقلها، اندهشت حين رأت الرسالة على هاتفها، وشعرت بأنّه كان يرافقها في خلوتها، يتلصص فِكرها الصامت.

قالت وهي تنظر لرسالته "لقد مرّ أكثر من أسبوعين على اللقاء ولم يجتَحْني التفكير به مثل اليوم، والآن تصلُني رسالة منه! هل هذه الرسالة إشارةٌ لما يسمّى بالتوافق الروحي من القدر؟"..

ثم سرعان ما ابتسمت لا إراديًا، كقارئ أعجبه جدًا سطرٌ من رواية، وشعرت بارتعاشٍ، بسيالة عصبيّة باردة مرّت كالنسيم خلال جسدِها، شحنةٍ زادت من قوّتها وثقتها بنفسها؛ فقررت أن تزيدَ من لوعتِهِ بإهمال الرّد على رسالتِهِ، عالمةً تمامًا كم سيكون هذا ضاريًا على عنفوان كبريائه..

www.ibtesama.com/vb

استيقظ بعد ليلةٍ ذبحت بطولها صبرَهُ، أخذ هاتفه المحمول مسرعًا ليرى إن كان هناك من شيءٍ يبرّد قلقه، لكنّه لليوم الثالث لم يجدْ أيَّ رد منها.

أصابتهُ مريم بعدم ردّها على رسالته بمرض الوقت الذي يقف عند نقطةٍ ولا يكملُ السير. كل ما يريده الآن التحررَ منهما، كي يعود الهواء يمرُّ إلى مجراه بسلام، ويتنفّس النرجسيّة كما اعتاد..

كان كلُّ ما يجول حوله يمسّها، تلاحقه كسحَابة تائهة في حضن الصيف، تُلقيه على صفحَة الأرْض التي ترغب.

تدُق باب قلبه كَقطرة ماءٍ تنسَاب بهدوءٍ على جلمود جسده.. حتى أصبح مدركًا أنّ لصمودِه نهايَة.. فقرّر أنْ يخرُج مِن مُعتَقلِه إلى الرفاق، لعلّ الهواء يُرضيه، كان يمشي بلا هدف، يقودُه عقلُه الباطن رغمًا عنه.. كَخريفٍ يُرنّح شجَرَةً في الاتّجاه الذي يرغب، ويُسيِّره كجنرال يجرُّ جنودَه إلى حربٍ لا يبتغونها..

وقع نظرَه على سنابِل قمح تنبُت بين مفاصِل الأرصفَة، كئيبةً تلوكُها المأساة بين فكيها، تنفعِل ولكنّها باقيَةٌ أسيرةَ الساقِ في جوفِ الأرض. داعَبتها نسمةُ هواء، فدَارت قِبلتها عليْه، كأنّها تُناديه لمسحها الحريّة، تحسبُه رسولَها المُنتظَر. ذهبَ يوسف نحوَها، وقطف منها سنبُلتين، وسار في طريقِه ماشيًا فوق أرقِه وانهزامِه الجميْل. ظلَّ بلا وعيٍ يسيْر إليها.. إلى برّ النجاة.

شخصٌ هناك ينادِي أختَه "مريم"، وهنا صالُة كوافير "مريم"، بجواره تمرّ سيَارة وعلى ظهرها كُتب "مريم".... حتّى الصُّدف

www.ibtesama.com/vb

تآمَرت عليْه، عذّبته كَطرِيْدٍ من مكان لآخر، حتى وجد نفسَه عند بيتِها، وأمامَه حديْقةٌ عبثَت بأساريرِها تنسيقات زهورِ "اللانتانا" التي تنمو منسيَّةً حرةً بعيدًا عن فضول الناس..

ذهب إلى سوبر ماركت بجوار منزلها، اشترى زجاجَة ماء وارتَوى، لمسَت مُقلتُه زجاجَة عطر " Hugo " مَرميّة كقبرٍ مجهولِ الهويّة، فغرَّد في خاطِره أنّها لمريم..، أخذَها، كسر رأسَها وملأَهَا بالماء، وقطف من الحديقَة ورد "اللانتانا"، ووضعهُ في الزجاجة مع السُنبلتِين .. أعجَبه ما فعل من مزجِ الحرية بالنسيان.. التَفت خلفَه، فرأى أمامَه مريم خرافيّة الحسنِ، جمالُها قطعةٌ من كتاب مقدّس حفظهُ الله من سموم الكهنة، جدائل شعرها..، وعيناها ..

تلعثم لسانُه هامسًا: "مِن أيِّ سماء إليَّ بُعثتِ؟"

ابتسَمَت بَأمل يُرمِّم المَوتَ في أجسَادِ الجُثث الحيّة لتُبعث من جديد. لم يَعد يدرِي كم كأس من النّبيذ تعادل صورتها، لتذهب بذهنه هكذا إلى ما وراء الطبيعة؟

عاد إليه الوعيُ للحظة، ورأى أنّه قد أعطاها، دون أن يَعي، زجاجَةَ العِطر التي زرع في كسْرِها سُنبلتين وزهرة!..

تنهّد في كلماتٍ بدَت متقطِعةً، نمّت عن ارتبَاكٍ تمكّن منه: "هِي لكِ..، ابتكرتها لكِ، أخشَى ألّا تُعجبْكِ.."

أخذَت يده وشدَّته إليها كأمٍ تشبّثت بَيدِ وليدِها خشيَةَ الضّياع، جلسَت مَعه على سلَّم البيت، وغنَّت لرشا رزق، بصوتٍ آلفٍ على مقام الصبا، شجي كالناي..:

www.ibtesama.com/vb

"ما للفكر صعب عليا..

اقرا بعيونك..

صدقني بنظرة وحدة بترجم كل جنونك.. "

فهو فاهُ نبضُه، فقد توقّع منها أيّ ردَة فعلٍ إلا تلك التي أرْدَته من جديد قتيلًا في حبها..!!

***

عائد إلى الحاوية (المنطقة الفرنسية):

يمشي مبتسمًا في شارعٍ هادئ، وقلبه الفياض ينتَشي وقْع الحدث، عائدًا إلى البيت بخطى راقصٍ مُتمَرس على إيقاع التناغُم الطبيعي، يلاطف الأرصفَة بقفزة هنا وهناك، كطِفل يحمِل شهادةَ التقدير يَبغي ان يُريها لوالدَته..

يرى شوارع غزّة كما لو أنّه لم يرَها من قبل، تُدهِشه تجاعيدُ الحكايات على جُدرانِها، فالجدران أوفى لأوجاعِ الحياة من الإنسان..

فها هُنا شجرة ولدت على الرّصيف قبل مِيلاد أجدادِه، عاشت كل العصور النصر والظّلام والانتقام والانهزام، رجلٌ ينام على كرسيٍّ امام البيت، متوحدًا يراهُ لا مُتألّما..

هكذا الحياة.. فنحن نرى الأشياء بصورة تعكس حالتنا المزاجية، ظل يوسف يمشي إلى البيت مُكتَنِزًا ما مضى للتوّ من ذكرى ستغدو حالما

www.ibtesama.com/vb

الوقائي، لأن العمل به يتمحورُ حول الكشف عن الجرائم المت
بالأمن الداخلي قبل حدوثها، كإجراءٍ وِقائي، وهذا ما كان يُ
الجهاز صلاحيّاتٍ واسعة أكبر من باقي الأجهزة. كذلك ي
للجهاز مقرّات منفصلة غير المبنى الرّئيسي، كما أنّه قد جنّد أ
محسوبين على أجهزة أُخرى، يعملون سرًّا لصالحه..

عناصر الأمن الوقائي متغلغين في جميع أجهزة السلطة، ومُتب
جدًا في الأحزاب السّياسية، وخصوصًا المعارضةِ منها. للجهاز
سجونٌ منفصلة، طرقٌ مختلفة، وفرقٌ ودوائر أمنيّة متعدّدة. إنّ
الأمن الوقائي، رغم دورِه الكبير في حِفظ النّظام الدّاخلي، إ
كان يتمتّع بسمْعةٍ سيّئة مقارنةً مع باقي الأجهِزة الأمنيّة..

حَضرَت مريم إلى مبنى جهاز الأمن الوقائي، ودخلت الباب
ترحيْباتٍ من عناصِر الشّرطة المُترامية في أنحاء المكان، و
يشكّلون لمسة رُعب إضافيّة لمن يأتيّ مُدانًا. كانت مريم تسيْر في
مُختلفة أشبه بالفُندُقيّة، إلى مكتب عمّها العقيد نبيل، غير تلك
يسلِكُها أيُّ شخص آخر شاءت الشّمس أن تُضاجِع عَرَقَهُ..

كان عمّها محبًّا لها، وهو من قام بترْبيتها بعدَ استِشهاد وال
مجزرة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢م، ووفاةِ والدَتِها حزنًا عليه.

بعد أن وصلت مريم إلى مكتب عمّها، سُرعان ما ترك كلّ
في يده وأخذ يرحّب بها. كانت مريم هي كلّ حياته، فهو لم يحظ
إلا بعد عشرين سنة من الزواج، وأطفاله التوائم محمد وأحمد
جاؤوه وهو في سِنّ الخمسين.

www.ibtesama.com/vb

الثلاثةُ في سنّ السّابعة، والفارق بين أعمارِهم ضئيل، محمد أكبَرُهم بثلاث دقائق.

جلسا على المكتب، أشار بطرْفِ عينيه للنقيب رأفت للانصِراف ولتنفيذ أمر كان مؤجلًا بعض الشيء. والأمور في أجهزة الأمن غالبًا ما تكون داخل نطاق العبث في الإنسانيّة بنظرة أو بإيماءة، ليُفتَتَح كرنفال تعذيب المُعتقلين على أيدي السّاديين من حماة الوطن!

ذهب النقيب، وبدأ نبيل ينظر إلى مريم وهو يسألها عن عملِها في الجمعية، وعن رسالة الماجستير التي تقوم بتحضيرِها، وإن احتاجت لأيّ توصية بخصوص أيّ أمر يُعيقها. وكانت مريم لا تَكلُّ من الرّفض وشكره، ثم سألته عن سبب اتصاله بها، فقال لها: كالعادة، أريد أن أكتُب بعض الأراضي باسْمِك، كي أؤمّن مستقبلكِ.

ضغط على جرس المكتب، فدخل المحامي ومعه الأوراق، وسرعان ما أصبحت تمتلك دونمات، في أقلّ من عشر دقائق..

تركت مريم الأوراق وتوقيعاتِها لدى عمّها، واستأذنت بالانصراف، فقام عن كرسيه ليقبلها، ثم نادى النقيب وأوصاه بإيصالها للسيارة، وعاد أدراجه..

***

غمامةٌ على الوجه، كرسيٌّ يعاني الشّيخوخة، ظلامٌ دامس، تلك معالِمُ غُرفة الموت.

www.ibtesama.com/vb

يدخل النقيب عِفّت، ومعه مجموعةٌ لا بأس بها من الألفاظ النابية.. يسأله يوسف: أين أنا؟ من أنتم؟..

فيجيب النقيب بصفعةٍ على وجهه، ثم يركل الكرسيَّ الذي ثُبِّت به يوسف، فينكسر ويرتطم رأس يوسف بالأرض. يفرُك النقيب جزمته على رأس يوسف، كما يفرك المدخّن سيجارتَهُ تحت قدمه.. يكسر زجاجة شراب بكعبِ قدم ضحيّته، ثم يضعُها على الأرض ويطلب من السّجّان أن يُجلِسَه عليها. وما هي إلا لحظات، وتخشع الجدران وجعًا على صراخ يوسف.

لم يتم التحقيقُ مع يوسف، ولم يتفوّه النقيب بسؤالٍ واحد. كل ما بصَقَهُ هو التعذيب اللاإنساني. هكذا يتمُّ التعاملُ مع مَن يرتَفعُ زِئبَقُ تقاريره على ميزان أجهزة الأمن، فلا مجال لمحاكمة، ولا مجال لقانون، ولا مجال للأسئلة دون المرور على صراط العذاب..

يُشعِل النقيب عفّت سيجارة، ثم يقترب من يوسف ويمزّق قميصه ببطء، ويطفيء السيجارة في صَدْره. ولو كان مزاجُه جيدًا، لاختارَ في جسمِه مكانًا أكثر وضاعةً، كما اعتاد ممارسة أسالِيبه الشّاذة في التعذيب.

***

هوجة السلطة تتفشّى في وسائل الإعلام، وعلى الجدران، والمطابع، القضية الأولى التي يتحدث بها سائقو السّيارات، حالة جديدة يشهدُها النّاس آنذاك، فهي أول انتخابات تضمّ أكبر الأحزاب السّياسية، التي لم تشارك في السّلطة من قبل..

www.ibtesama.com/vb

وستلخّص المنافسة بين أشدّ الأحزاب مُلاسَنة، وكلٌ منهم لديه نُوتة خاصة يعزف بها على أوتار مشاعر الناس. بعض الناس انتهى لأن حزب الحرب ذي الطابع الديني، والذي اكتَسَب شعبيّته من تصريحاته الهجومية التي تنشُدها اسرائيل في حال فوزه، والتي كانت تأخذ اتجاهًا ايجابيا لحساب الحزب، بعكس المضمون الظاهري!

وطلّاب المدارس أصبح بحوزتهم موضوعٌ مهمٌ لإثارته في الحصص الدراسية، كوسيلةٍ للهروب من الدروس، واستعراض ثقافتهم الموروثة من حديث آبائهم عن التاريخ النِضاليّ للأحزاب، وأيضًا تاريخَهم الاجراميّ..

شيءٌ من الفوضى الخلّاقة بدأ يشتدُّ أزيزُه في فلسطين..

***

انبلجت تباريحُ الصّباح من خلف الستار، أشعةُ الشمس تتلصّص النظر لإشراقة جفنٍ من طَورِه الأول.. يزداد سطوعُها، وحالت المراهقة تزفّ لرِمش عينيها نبأ الصباح..

تفرك عينيها قليلًا، ثم تذهب لتعتني بقهوتها السّمراء، ذلك السّر الذي طالما حافظ على أناقةِ يومِها. تأخذ مريم قهوتَها، وتذهب بها إلى حديقة بيتها الصّغيرة..

تجلس على الكرسيّ، مُمارِسةً رياضَة التأمُل، وتبدأ بكتابةٍ ذِهنيّة ليومياتها، كتلك التي يمارسها المعتقلون في سجون تحرِّم على أيديهم لمس القلم..

www.ibtesama.com/vb

"يوسف..يوسف..يوسف، يحدث أن تسرُقني بهذا الشكل، اسمه الذي كنتَ حاضرًا طفولتي، وغبْتَ طويلًا، وها أنت تعودُ في صبا

أريد أن أتذكَّرك على مهل، أنت الخدوم دائمًا....

أذكر تلك الأيَّام، حينما كنت تأتي مُرافقًا لأبيك مُدّعيًا مساعدته في بناء عمارة عمي. كنت أعلَم جيدًا يومها أنّك آتٍ لتتحيَّن فرص الدّخول لمنزلنا، بحجَّة أخذ الشّاي للعمال.

ثم تأتي لتطْلب الغداء، والقهوة، وحتى الماء... تُطيل من وقوفك وتبالغ في تفاصيل حديثك.. حينها استطعْتَ أن توجِّه لي الأوامر التي كانت السّبيل الوحيد لإطالة الوقوف معي خلف الباب. كنتُ أراك شرقيًّا، أو أميرًا يهوى إملاء التّوجيهات وترى بي ذكوريّتك، هذا ما كانت تبوح به عيناك.

أذكر حين حدثْتني عن قهوتك السمراء بطريقةٍ فوضويّة خارج السياق!

– أريد خمسة فناجين من الشاي، اثنين وسط، واحد سادة، والبقية سكر زيادة!

– سأضع لك السُّكريّة وأنت ضع كما يحلو لك من السكر

– أنا لا أشرب إلا القهوة السمراء!

كان هذا الحديث المُختلق من خلف باب بيتي هو أولى خطوات وقوعي فريسَة إدمان القهوة السمراء..

www.ibtesama.com/vb

نعم، ها أنا أكتشفُك يا يوسف، أكتشفك بعدما أثقل غبار الأيا
حولي، صارّ أعماني عن رؤية قلبي، لتصبح وظيفته ضخُّ الدماء لا
أهم

لست صبورًا على عمل البناء مع والدك، لكنَّك كنت مثابرًا
... هنا بدوقك الأخاذ، كان يشدُّني إعجابك اللامرئيّ بي، شعورٌ ا
... أحدٌ سواي..

أقف على الشّرفة لأراك ذاهبًا إلى المسجد مع أخيك، لطالما أبغض
... عمي بسبب عمله في أجهزة السلطة الفلسطينية. لم أك أفه
... لماذا، وكنت أتمنى أن أبقى طفلةً، كي أبقى كذلك..

كنت أحبك، وما زلت.. نعم أحبك.

يحدث أن نحبَّ شخصًا ولا نعرف أن ذلك هو الحب، لم تكن
... أبدًا، فخجلُك الدّائم وحِرصُك على إثارة إعجابي كان يُلد
ذلك في نظري.

لو كنت أعلم يومها معنى الحب لقلتها "أحبّك"، والآن ها
انفرد بهذا الاعتراف لنفسي، أضمُّه باحتِقانٍ لدمعي..

***

سجن السرايا، أشجارٌ منسقةٌ كغابة، لا أحد يعتني هناك بالشج
غرفة بسريرٍ حديديٍّ، ونافذة بقضبان تطلُّ على حديقة..

www.ibtesama.com/vb

طعامٌ جيد على الطاولة، قطعة دجاج وطبق أرز. في هذا السجن يمنحون المعتقلين طعامًا فاخرًا، فقد وجد يوسف نفسه انتقل من سجن الى آخرٍ ارقى بكثير.

يقبع السجن في وسط قطاع غزة، في منطقة تُسمّى السَرايا، تلك المنطقة التي شُيِّدت في الثلاثينيات من القرن العشرين، إبان الإحتلال البريطاني لأرض فلسطين. معاصرًا أحداث غزة لأكثر من سبعين عاما، قد شهد البناءُ العديدَ من الحقبات منذ وجود البريطانيين والإدارة المصرية سنة ١٩٢٢، ثم الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٤٨ والذي حوّله بدوره إلى منطقة عسكريّة يرأسُها جنِرال إسرائيليّ، إلى أن وصلت إدارة هذا المكان إلى يد السلطة الفلسطينية، وأصبح مقرًا للأجهزةِ الأمنيّة، يَحتَضِن في داخله جهاز الأمن الوطني، والاستخبارات العسكرية ،وسجنًا مركزيًا هو سجن السرايا..

الآن وُضِعَ يوسف في إحدى غرف الحجز الأوّليّ، والتي لا يعلمُ كم من مناضلٍ وكم من مجرم قد سُجِنَ في هذه الغرفة، فبسبب تعاقب السلطات التي كانت تديره، مرَّ عليه المقاوم والمدرّس كما مرَّ القاتل والسارق..

يوسف في هذه الغرفة لا يستطيع أن يتكلم إلا مع السّجان، الذي اعتاد أن يستَوقِفه قليلًا للحديث كلّما دخل مقدّمًا له الطعام. كان السّجان لا ينفكُّ عن ذلك الحديث الذي بَرَع فيه، أصول العائلات وأسماء القُرى الفلسطينية التي دَثَرت أسرائيل أسماءَها ومعالِمها العربيّة، وعن كبواتهم، نكساتهم، نكباتهم....

www.ibtesama.com/vb

استثار ذلك السجان الكهل ذاكرة يوسف، ودفعه للحديث عن أصوله. فيوسف فلاح من قرية بربرة، ترك أجداده أراضيهم إثر حرب ٤٨ ولجؤوا إلى غزة. كان يطلق على اسم عائلتهم عائلة الشيخ، وكان جده مختار تلك القرية، جاء إلى غزّة وهو بحالة ميسورة جدًا، لكنه لم يشترِ آيّة قطعة أرضٍ من أراضي منطقة غزّة كالكثير من الناس، ظنًّا منه أن عودته إلى القرية لن تكون بعيدة. كان قادرًا على أن يشتري مساحاتٍ شاسعة من الأراضي آنذاك، ولو فَعل لما صار يوسف من طبقة المَوجوعين ببطاقات المُؤن ومساعدات الأنروا..

بدأ يومَه الأوّل في هذه الغُرفة دون أن يعرِف سبب بقائه هنا، بدأت ذكرياته تتلو عليه حروفَها، ويسأل نفسه: ماذا من الممكن أن أكون قد ارتكبت في حياتيّ؟

هل يعقل أني ارتَكَبْتُ جريمةً وأنا نائم، لا علاقة تربِطُني بالأحزاب السّياسية، لم أسرق من أحد، ولم أكن عميلًا يومًا لأحد، لم أعمل في المؤسّسات المشبوهة، لم أخدم ثعلبًا ولم أقحم نفسي في آيّةِ غابة..

ربّما هدّدْتُ أحدًا على سبيل المُزاح، فأنا أصغرُ من أن أُسيءَ لإنسان، ليس ضعفًا مني، ولكنّهُ استخفافي بالكثير من الأمور، ربّما هذا هو الضّعف بحدِّ ذاته..

لا أريد لعقلي أن يُفَلسِفَ الأمور، أريد فقط أن أعرفَ ماذا اقترفتُ لأكون في هذا السّجن الفُندقيّ!

لماذا بعد كلّ ذاك الإذلال في تلك الزّنزانة الدّمويّة، أُنقَلُ لهذه الغرفة الفاخرة؟، هل اختلطت عليهم الأمور وأنا هنا لسوء فهم؟

www.ibtesama.com/vb

هل هناك أحدٌ لاحظ اختفائي؟ لا أظن ذلك، فأنا اعتدت أن أغيب لأسابيع دون أن يهتم أحد، أنا من عوّدتُهم على ذلك..

مرَّ أكثر من ثلاثة أيام، وكلُّ ما استَطَاع استِشفَافَهُ من السجان أنه في هذه الغرفة ليس كسجين، وإنما مُتَحَفَّظٌ عليه، كورقة ضغط في يد أحد المسؤولين، ولا أحد يعلم مكانه إلاّ أربعة أشخاص: النقيب عفت والمسئول والسّجان، والشّخص الذي لأجل الضغط عليه قد سُجن يوسف..

الأيام تمرُّ، ويوسف يمرّ بها بما استطاع من صبرِه، يخاطب السّجان مرة، ويَستسلِم باقي اليوم لأفكارٍ تُمشّط وبر جسدِه.. من هذا الشخص، ولماذا؟

بين من ولماذا، احترق عقلُه..

***

ارتأت الجلوس على كرسيِّ مكتبها والاسترخاء، أقفلت جُفنيها في وجه النور، غدا كلُّ ما تراه ظلامًا. أخذت تتنفّسُ بشكلٍ مُتقطع، فلقد قرأت شيئًا عن هذه العملية التي تُساعدها على التركيز..

لمع نورٌ داخل أحداقِها، نورٌ يوقِظ غفوةَ الحبِّ المُزمِن، تسعدكم الحبَّ الذي سمّتهُ آنذاك بكلِّ شيءٍ إلا الحب، أخذتها ذاكرتها المشوّهة إلى أبعد ممّا تُريد، بدأت أنفاسُها تُتابع الظلَّ الذي تراءى أمامها كصورةٍ مرئيّةٍ لعرضٍ سينمائي، لذكرى مضت وكان من المفروض عليها ألّا تدعَها تعودُ، ولكنّها عادت...

www.ibtesama.com/vb

كان يوسف يعمل أيام دراستِهِ الثّانوية في مجال الدّعاية والإعلان، الى جانب مهاراته المُختلفة على الحاسوب، وكان على علاقةٍ وطيدةٍ مع المسرح والسينما، ويحرص دائمًا على حضور الأعمال المسرحيّة في غزّة، سواءً كانت جيّدة أو سيّئة، أو حتى التي يتمُّ تنفيذُها بطريقةٍ او بأخرى لغسيل أموال الممولين..

وصلت مع عمها نبيل إلى مسرح الهلال الأحمر الفلسطيني، الواقع في منطقة تلّ الهوى في القطاع. كانت السّاعة الثامنة مساءً، في ذلك الوقت عادةً لا يتواجد في المسرح إلا من يقومُ بالتدريب على الروايات المسرحية، أو من جاء لتجهيز المسرح لعرضٍ أو مهرجان. وصلت مريم المسرحِ بكامل أناقتِها، ترتدي تيشرت "بنفسجيّ" وبنطال جينز، وجزءٌ من شعرِها يغطّي عينيها ويداعبُ رموشَها. صافح عمها المخرج والممثل المسرحي الفلسطينيّ فراس علي، والذي يعمل ايضًا مديرًا في التلفزيون المحلي الفلسطينيّ. كان ترحيبه الشديد بها ضعيفًا من الضعف، فقد بالغ الترحيب بعمّها كثيرًا، ثم جاء وسلّم عليها، وتبادلا حديثًا ترحيبيًا قصيرًا:

لا بد ان أخرِج لك يومًا فيلمًا سينمائيًا، فانتِ فاتنةٌ كنجمات هوليود

وما الدور الذي تراه يُلائمني أكثر؟

شكسبير، انت جولييت، تستطيعين ان تُشعلي بجمالك حربًا ... العالم

... ساحرة:

www.ibtesama.com/vb

- لا احبِّذُ شكسبير، افضِّلُ ادوار سعاد حسني...

لم تكن مريم تخجل عادةً من التعامُل مع الرجال، فقد رافقت عمَّها في الكثير من المناسبات الرَّسمية، فزوجةِ عمّها ظلّت لفترةٍ طويلةٍ لا تُنجب، وكانت مريم بمثابة ابنَتِه وربما أكثر، وأخذت من سلطةِ عمِّها الجرأة والحريَّة والحيويَّة! كان يأخذ رأيها في كثيرٍ من الأمور في حياتِهم الاجتماعية، وكان كثيرًا ما يختلِف معها في النقاش، ويُثرِي عقلها بالمعلومات السّياسية والثقافية ونظرتُه إلى الحياة، والتي من الممكن وصفها بالميكافيليّة..

طلب المخرج فراس من العقيد نبيل أن يتفضّل بالجلوس، كي يستمع لموسيقى المسرحية التصويريَّة، مُدركًا ذوقَهُ الخاص في هذا المجال. وطلب من مريم مُناداة يوسف من غرفة التحكم، التي تقع أعلى المدرجات، وأن تطلبَ منه أن يشغِّل إضاءة المسرح المُعدة مسبقًا للمونولوج المسرحي الذي سوف يتخلَّل منتصف المسرحية، فقد كان يوسف مساعدَ مخرج في هذه المسرحيّة المُتحدِّثة عن السلام، ذلك الموضوع الروتينيّ في الأعمال المسرحيّة، والتي يَسهُلُ الحصولُ لها على تمويل..

طرقت مريم باب الغرفة وقلبها يتلهَّف بتَمَنُّعٍ لرؤيةِ يوسف، تحت ظروفِ هذه الصدفة المُفتعلة، بعد أن عرفت مسبقًا أنّهُ هناك، فقد قرأت آخر تحديث ليوسف على الفيسبوك، والذي ذكر فيه أنّه سيكون هناك مع المخرج فراس علي؛ لتنفيذ بروفات المسرحية. بدأت مريم تشعرُ بأنَّ قواها تنكبُّ خارجًا عن سيطرتِها، ترتعشُ

www.ibtesama.com/vb

مشاعِرُها بخفةٍ كأثرِ اللعِيب على فراشة.. وما إن استدارت قبضة الباب، استجمعت قواها المُتراخية وجمّدتها بصلابةٍ أمام يوسف..

- مرحبًا كيف أهلك؟ كيف خالتي أم لؤي؟

فردَّ ساخرا وبقوّةٍ يخفي تحتها الفرحة، لتُرجّح كفّته في ميزان قوى الشخصية:

- أهلي وخالتك... الحمد لله بخير..

ودون وعي مسبق، تمرّدت مشاعره عليه، جذبتهُ كالمغناطيس، اصبح عقله خارج سيطرته قليلًا، بعيدًا عن قواه، جُرمٌ يسبح في الفضاء..

اقترب منها واحتضنها.. كانت تلك اللحظة الأجرأ في حياته، رغم معاناتِه باللامبالاة المُزمنة، إلّا أن تلكَ الثواني التي ذابت أرواحهما فيها هزّته كما تهزُّ الثورات عروشَ الملوك والطغاة..

مضت أقلُّ من ثوانٍ ومريم بين ذراعيه، عادت مريم لقوتها ودفعتْهُ فجاةً بعيدًا عنها، وكادت أن تصفعه.

***

هذه هي جدران السجن، وتَشقُّقات الحائط تسمحُ بتسرُّبِ الحنينِ من مساماته.. هو الحبُّ، ذلك الفُندق الواقع في ذاكرتنا، والذي نهربُ إليه إذا ما لاحقنا الفراغ.. هو الحنين المُشتَهى، هو ليلُ هذا السّجين بلا سبب..

www.ibtesama.com/vb

على الجدران تجد الشيء وضِدّهُ، كلماتٍ ثوريّة، رسوماتٍ وطنيّة، ألفاظًا إباحيّة، ورسوماتٍ ساخِرة..

قد يكون هذا المكان سجنا وقد يكون معتقلا، يَرجِعُ توصيفَهُ إلى الخلفية التي تسبّبت في الاعتقال..

يتأملُ يوسف الجدران، وكأنّ الخطوط والتّشقُّقات تتحوّلُ لشيءٍ ما، لرسمةٍ أو صورة، لشيءٍ مُرتبط في أعماقه، تدفُّقٌ من أحابيلِ وجعِهِ، فاخذت مخيّلتِهِ تحوّلُها لحالةٍ مرئيّةٍ. وما إن اكتملت الصورة على الحائط، حتى فَزِع وعاد بظهره إلى الوراء..

صورة مريم، وابتسامَتُها الخجولة في المسرح، وحالة اللامبالاة التي تحترفُ أداءها أمامه، ثم تتحوّل ابتسامتُها تدريجيًا إلى نظرة فزعٍ، خوفٍ كأنها ترى شيئًا مرعبًا أمامها لا تقوَى على أيّ ردة فعلٍ غير أنّ عبس وجهَهَا خوفًا..

التفت يوسف إلى الجدار الآخر الذي تحوّل نظرُ مريم إليه، فتصبّبه عرقُ اللحظة والخوف من تلك الصورة على الجدار، التي أحسّ أثرها بانقباضِ قلبه..

***

الجامع الأبيض تأسّس عام١٩٥٢، ويقع في مخيّم الشّاطىء. مسجدٌ بديع، فأهل المخيم أسخياءٌ في التبرع للمساجد، لا يختلف أحدٌ على ذلك. بناءٌ رائع، لا يشبهِ أبدًا في بنائه الطراز العشوائيّ لمباني المخيم.

www.ibtesama.com/vb

يقع المسجد بجوار سوق معسكر الشّاطيء، بالقرب من البحر مسافة احتساء فُنجان قهوة، تحلّق مأذنته بشموخٍ في السّماء، تراها من كل نوافذ البيوت، تحيطُ فوضى المخيّم بالمسجد، وسوقٌ عشوائيٌّ، وضجيجٌ متراكم على مسامع الناس، ولا يزال التراكم يزداد مع كلّ بائعٍ متجوّل يبسطُ عربته، وكلِ سيّارة تزيدُ من عُمر زحام الشارع سنة، وكلُّ مَنْجَرَةٍ وحداد، وكلُّ ما يتسعُ الخيال لاستيعابهِ من معنًى للزحام والضجيج.

لكنّك حينما تدخُل المسجد، تشعر أنّك خرجت من فصلٍ لفصل، أو من مناخٍ لمناخ، كأنّك للتوِ نجوتَ من عاصفةٍ بحريّة ورَسَوْتَ على جزيرةٍ هادئة، سَكِيْنةُ الجامع تتغلغلُ في قلبِك منذ خطوتك الأولى على سلّم المسجد. الحالةُ الفوريّة للتنقل ما بين حالة حربٍ وسلام، تُصيب ملكوت القلب بحالةِ استرخاءٍ فريدة، فترى القلب يتمرّد على صمتِهِ ولتخرُجُ من اللسان تمتماتٌ إيمانيّة من عمق الفطرة والحاجة الدائمة لوجود الله إلى جانب الإنسان.

الزّخرفات الإسلاميّة داخل المسجد أنيقة، توازنٌ تامٌ مع كل العناصرِ المعماريّة في هذا الصرح، الكتابات الإسلامية على الجدران بالخطّ الكوفيّ والفارسي، تتألّق بمُنْحَنَياتِها وانسيابيّتها مع قُدسيَّة الكلمات وأسماء الله الحسنى ونبيِّه الكريم. إدارة الجوامع كانت في تلك الفترة تحت إشراف وزارة الأوقاف، لكنّها بشكلٍ أو بآخر كانت تحت تصرُّف التّنظيمات الإسلامية، وكان هذا المسجد محطّ تنافسٍ بين التّنظيمات في النشاطات التي يفرزُها للمصلين.

www.ibtesama.com/vb

يكون المسجد عادةً عامرًا بروّادِهِ حتى في غير أوقات الصلاة، فلكلٍّ جامعٍ فريقٌ رياضيٌّ، ولجانٌ مختلفة –سواء كانت ثقافيّة أو لجانٌ لإقامة الرحلات الترفيهية– وهذا ما يَستقطب روادًا أكثر للمسجد. وما تتميّز به ثقافة الشعب الغزّيّ شعوره التنافسيّ الفطريّ بالرغبة في التميُّز على مختلف الأصعدة، سواء كانت الثقافيّة أو الدينيّة أو الترفيهيّة، فتجد الكثير في أوساط الشباب يتنافسون على ألقاب القيادة "مسؤول خليّة، مسؤول فرع، مسؤول لجنة،.. الخ"..

بعد صلاة العصر، كان يجلس مصطفى، الأخُ الأكبر ليوسف، في الركن الأيمن بجوار الباب الجانبي، الذي يُشرف على مركز شرطة الشاطئ، يتحدث مع مجموعةٍ من الشّباب عن أهمّيّة الدور الإعلامي للتنظيم، وعن فلسفته في نشر البيانات العسكرية والأخبار المرتبطة بالفكر الأيدُلوجيّ للتنظيم، والنواحي الإيجابيّة على الصّعيد النفسي، التي تخدم أفكار التّنظيم من خلال نشر الإشاعة.

مصطفى يتمتّع بكاريزما قياديّة مُختلفة، لم يكن يُشبه باقي أعضاء التّنظيم، فقد كان يهذّبُ لِحيَتَهُ، هو جريءٌ وقويُّ الشّخصية، يتمتّعُ بقدرةٍ فائقةٍ على الإقناع، واستيعابه لفلسفة التّعامل مع فنون الإشاعة وصناعَتها واختيار الوقت المناسِب لنشرِها، سواء كانت إشاعات تدعو للتفاؤل الشّديد، أو تلك الإشاعات التي تُصيب الناس بحالةٍ من الإحباط والخوف.. يَفهم جيدًا خيوط المؤامرات وحبكتها، ويعرف كيف يُشعل الأزمات، ويَعرف جيدًا كيف يُطفِئها.

مصطفى كان في هذه الفترة يقود إدارة الحملة الانتخابية في منطقة غزة بشكل عام، وبوجه خاص منطقة الشيخ رضوان، الشمالي، الشاطئ، تل الهوى، الرمال والنصر.

www.ibtesama.com/vb

وخلال حديثه مع باقي أعضاء المجموعة المُحاطِ بها، سمع أصوات موكب العقيد نبيل إلى مركزِ الشرطة، وانتشارِ العديد من عناصر الشرطة حولَ المسجد، بشكل لم يكن لافت لنظرِ المارة. كان لديهم معلومات بوجود مصطفى داخل المسجد، فدخل عدد من أفراد الأمن الوطني بلباسٍ مدنيٍّ للمسجد، وبدأوا بتفتيشه، وباقي عناصر الشرطة تقفُ مراقبةً مخارج الطرقِ المحيطة بالمسجد. وبعد مرورِ أكثر من ساعة، خرج أحد أفراد الأمن الوطنيِّ إلى مركز الشرطة، حيث يجلس العقيد نبيل في مكتب مدير مركز الشرطة، وأخبر العقيد باعتقال خمسة أشخاص، مصطفى ليس منهم..

***

أفاقت مريم من غفوةِ يقَظَتِها، مُنتعشة بما تشربتْهُ للتو من الحنين، أفاقت من ذكرياتها وعادت لواقع اللحظة، طرقت سكرتيرةِ مكتبِها الباب عليها ثم دخلت:

- القاعة جاهزة والحضور اكتمل، والضيفُ وصل للتوِّ وهو على السلم.

بشيءٍ من الشرود أجابتها:

- من؟ أها.. لماذا لم يصعدْ المصعد؟

- لا أدري، ربما يعاني من فوبيا المصاعد، مثلما يعاني من فوبيا الحلاقين.

ضحكت مريم وقالت لها: أنا قادمة. وعندما ذهبت سكرتيرتها، توقفت للحظة عند الباب، واستدارت ونظرت لمريم قائلة:

www.ibtesama.com/vb

– هل كل أمورك على ما يرام؟

– نعم بالطبع، وهل يبدو عليَّ غيرُ ذلك؟

– أبدًا، لكن يبدو أنّ مَزاجَكِ مُعتدلٌ اليوم، فنظرة السعادة التي تختزِلُها عينيْكِ أعرفها جيدًا، هل أنت...

وقبل أن تكمل حديثها قاطعتها مريم:

– لا ليست تلك التي تعرفينها "بكيير كتير"..

غمزَتها السكرتيرة وخرجت، عندما تأكدت أن عينيها تقول غيرَ ذلك، فالنساءُ أكثر دِرايةً بأمور الكذب الأبيض بين بعضهن البعض..

مقر جمعيَّة مريم يعكُس مدى اتساع علاقات مريم، فالتأثيثُ الباذخُ للمكان يدلُّ على حجم العطاء والتمويل الذي تحصلُ عليه، تقع الجمعية في الشارع الموازي لشارع رشيد، على مسافة صغيرة من ميناء غزة، ويمكن لمريم أن تُشاهد مشهدًا رائعًا من نافذة غرفتها الكبيرة.. بحرُ غزّة، والسفنُ المُترامية التي لا تتحرَّك، ومراكب الصيد، والفنادقُ والمطاعمُ المُتَراشِقَة على صفِّ الشاطئ. اعتادت مريم أن تضعَ أزهارًا مميَّزة على نافِذتها، لكي يتقاطع مَدَى المشهدِ البحريِّ لبحر غزَّة مع أزهارها الخاصة، بحيث تكتمِلُ عناصر الجمال في منظورِها. أينما تجد مريم، تجد الورق مرافقًا لها، يحطُّ بالقربِ منها كحمامةٍ اهتدَت لبيتها.

اللقاء الذي سوف تُديرُه اليوم مريم مع الضيف الدكتور ماهر أحمد، عميد كلية العلوم السياسيَّة في جامعة الأزهر، وعضو المجلس

www.ibtesama.com/vb

المدرِّسيّ في البرلمان الفلسطيني، كان تحت عنوان "المشاركة السياسية للمرأة الفلسطينيَّة في العمل الوطني".

بدأت مريم اللقاء مرحبةً بالدكتور ومعرِّفةً به، ثم تحدثت عن الحجم المتواضع لمشاركة المرأة في الشأنِ السياسيِّ على الساحة الفلسطينية، وأشادت بالدورِ النّضاليِّ للمرأة في القضيَّة الفلسطينيَّة، ثم اعطت الكلمة للدكتور ماهر، والذي تطرق فيها أيضًا للحاجة إلى توسيع دائرة العمل السياسي للمرأة، وضرورة الخروج بتوصيات تصلُ إلى الحد الذي يُرضي طموحات المرأة الفلسطينيَّة في الساحة السياسيَّة.

كان حديثًا مقتضبًا، كأنَّه أسطوانة تسجيليَّة. فُتِحَ بابُ النقاش مع الحضور، كان أغلب الحضور من النساء، بعضُهن حاول تحجيم دور المرأة من منظورهِن الدينيِّ، وحاولت أحداهن الاستنادَ في ذلك على الحديث النبوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم "لن يفلحَ قومٌ ولّوا امرهم لامرأة" وأوضحت بناءً على ذلك أن لا يحقُّ للمرأة العمل بالمناصب القياديَّة العظيمة. اشتبكت في تأويل الحديث معها ناشطةٌ اجتماعيةٌ عارضَتها بشدةٍ، وقالت موجهةً كلامها للجميع، إن هذا الحديث الشريف له واقعةٌ تاريخيَّة، ويُعتَبر حديثًا إخباريًا وليس إنشائيًا بالنظر إلى محتواه التاريخيّ، إنّ حديثَ الرسول صلى الله عليه وسلم له علاقة بفعلٍ سياسيٍّ، فقد كان الرسول الكريم قد بدأ مراسلة قادة العالم للبدءِ في الدعوة إلى الدين الاسلاميِّ، وبالطبع كان من أولَئك القادة كسرى الثاني ملك الفرس، والذي مزّق الكتاب الذي بعثَهُ النبي صلى الله عليه وسلم لَيَدْعُوَهُ هو وقومه إلى الإسلام، فدعا عليه الرسول: "مزّق الله ملكه"..

www.ibtesama.com/vb

وبعد مرور فترةٍ من الزمن، وصل إلى مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم بأنَّ كسرى قد مات، ووَرثت ابنتُه بوران المُلك، فقال الرسول: "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم لامرأة".

لم ينجُ أحدٌ من هذا الحوار، واشتدَّ تعصُّبُ النساء ضد النساء، مما اضطر مريم لإنهاء الندوة، وطلبت من الحضور التوجُّه إلى القاعة الثانية لتناولِ وجبة الغداء.

ثم ذهبت إلى مكتبها مع الدكتور ماهر، وتبادلا حديثًا مقتضبًا روتينيًا عن إمكانيَّة تنفيذِ مشاريعٍ لتوسيع مشاركة المرأة في العمل السياسيّ، وبعد انتهاء الحديث، أعطت مريم شيك بمبلغ ٥٠٠ دولار أمريكي إلى الدكتور، نظيرَ مشاركته في الورشة!

***

حلَّ الغروب ضيفًا على سماء المخيَّم. بعد واقعة الاعتقال في المسجد الأبيض، جاء الغروب بصحبةِ رفيقٍ ثقيلِ الظل.

لم يلحظْ أحد من سكان المنطقة المُجاورة لمركز الشرطة غارة الشرطة على المسجد واعتقال خمسةِ أشخاصٍ من داخل المسجد. خلالَ عشرةِ دقائق، انتشر العشرات من أفرادِ التنظيم حول مركز الشرطة، أغلقوا كل الشوارع المؤديّة إلى المركز، واختفى زحام الناس كليًا مع أول دقيقة من وصولِهم، وبدأ تبادلُ إطلاق النار مع المركز. أغلق أفراد الشرطة بوابة المركز، واختبأ كل العناصر داخله. جميعُ الأسلحة الموجودة داخَل المركز لا تساوِي شيئًا أمامَ الأسلحة التي يحمِلها أفراد التنظيم.. تبادل الطرفان إطلاق النار، التنظيم يُطلق النار من على الأرض، والشرطة تطلق النار من على سطح المركز ومن نوافذه الصغيرة.

www.ibtesama.com/vb

مرت أكثر من رُبع ساعة على تبادل إطلاق النار، ثم جاءت سيارة جيب مسرعة تابعة للتنظيم، ووقفت في منتصف الشارع المقابل للمركز، ونزَلَ منها شخصٌ يحمل قاذفًا صاروخيًا، أطلق منه على سور المركز، فتسبب بفتح فجوةٍ قطرها أكثر من مترٍ ونصف، ومقتل مساعد كان يطلقُ النارَ من خلف نافذة صغيرة تُستخدم للدفاع عن المركز.

بعدها طُلب من أفراد التنظيم إيقاف إطلاق النار، وعلى إثر ذلك أوقفت الشرطة إطلاق النار.

نادى أحد قادة الهجوم من التنظيم بالمايكرُفون قائلًا: "خلال خمس دقائق، إذا لم يتمّ الإفراجُ عن المعتقلين الذين اعتقلتُموهم ظهر اليوم، سنقوم باقتحام المركز. وبدأ في تسمية المعتقلين واحدًا تلو الآخر".

ظهر أحد عناصر الشرطة على سطح المركز موافقًا، وطالبًا منهم إيقاف إطلاق النار، مقابل إخلاء سبيل المُعتقلين، وكرَّر نداءه عدة مرات....

خرجت مريم بسيَّارتها، بعد انتهاء الندوة في الجمعية، لترتشف قهوتها في مطعم اللوتس. روّاد هذا المطعم غالبًا هم من طبقة الأثرياء ورجال الأعمال والسلطة، فهو يبعد مسافة أغنيةٍ قصيرة عن بيت الرئيس الفلسطيني، ولا يبعد كثيرًا عن شاطئ البحر. ركنت سيارتها من طراز "جولف" أمام المطعم، وألقت التحيَّة على الحارس، ثمّ أعطَتهُ مُفتاح السيَّارة، وطلبت منه أن يغسِلَها بينما ترتشِّف فنجان قهوتها.

www.ibtesama.com/vb

مطعم اللوتس مُختلف من حيث الشكل والروّاد، تُحيطه الأشجار والزهور من كلّ صوب، وغالبًا تلك الأزهار المزروعةُ على أسوارِه مُستَورَدة وليست أزهارًا محليّة، رُغم أنّ قطاع غزّة يصدِّر لأوروبا الأزهار والتوابل والفراولة. المطعم مُصمَّمٌ على الطراز الإنجليزي، تُديره سيِّدَة أعمال فلسطينيّة، وأغلب الموظفين القائمين عليه هم من عائلتها، لذلك لن تجدَ أيَّ إهمالٍ في أناقة المكان.

ذهبت مريم إلى الطاولةِ المحجوزةِ دائمًا لها، فسبقها النادل وسحب الكرسيَّ لتجلس.. شكرته، وطلبت مِنه قهوتَها السَّمراء، أو قهوة يوسف الكادح.

كان يوسف على علاقة دائمة مع مريم منذ طُفولتِها، فوالده كان يعملُ دائمًا لحساب عمها، قبل أن يستشهِد أثناء عمله.. كان أبو يوسف جالسًا معَ أحد القياديين، عندما أرسلت إسرائيل طائِراتِها لاغتياله. كانا يخطِطَان لبناء منزلٍ لابن ذاك القيادي، وكان يحثُّه على الإسراع، لأن عرسَهُ بعد ثلاثة أشهر.. لم يتمّ العُرس، ولن يتم.

يوسف كان يلتقي مع مريم كثيرًا في المرحلة الإعداديّة من دراسته، في جمعيّة الهلالِ الأحمر الواقعة في منطقة تل الهوى، حيث كانت مريم تدرُس الموسيقى هناك. فمريم صوتها رقيقٌ جدًا، وتجيدُ العزف على الجيتار والأورج. لكن سبب تسجيل يوسف في الجمعية كان رغبته اللانهائية باختلاق الصُدف للقاء مريم. يحاول دائمًا أن يفتَعِل حوارًا معها، وبما أن مريم مُهتمةٌ بقراءة الشعر والأدب، قرر أن يكتب كي يثير إعجابها، وأخذ على عاتِقه هذه الفكرة التي خُلِقَت من عدمٍ، أو من حب.

www.ibtesama.com/vb

قاطع النادل شرود مريم مع الموسيقى الأرجنتينية، التي كانت تهدُل في المكان.. لطالما كانت مُولَعةً بها. وأحضر لها القهوة مع قطعة من كلاكة صغيرة..

دائمًا ما تعامل مريم فنجان قهوتها.. رُغم أنّ الكثير من أصدقائها ينتقد إسرافها في شرب القهوة، فهي تشرب بمعدل أربعة فناجين قهوة يوميًا، في الصباح، في المساء، وأي وقت. في حضرة القهوة، يتلصّص الحنين على شرايين القلب والذاكرة، وهذا ما ينتابُ مريم.. الحنينُ الطفولي جدًا. إن ارتباط الحنين بلحظات الطفولة يجعل من زياراته غير موجعة، بل خفيفةٍ على القلب مثل خفة النسيم على الخد. تذكّرت قصاصات الورق التي كتبها يوسف لكي تُعطيه رأيها بها، أو إن أرسل كي يبقى على اتصال معها، ويُحدثُها في أيِّ وقتٍ شاء..

في حالةٍ غير حالةِ مريم، من الصعوبة أن يلتقيَ حبيبان في غزة، فغالبًا ما تجد العشّاق تربُطُهم علاقةٌ أسرية، فابن العمِّ واقعٌ في غرام ابنة عمِّه، أو خاله... الخ.

تذكّرتْ يوم قالت له إنّها تحب موسيقى الثلاثينات، وتحديدًا التانغو الأرجنتينيّ، وترغب بشدة تعلُّمَ تلك الرقصة الأرجنتينية بمصاحبة الموسيقى، فقال لها "كتبت شيئًا عن الرقص الأرجنتينيَ: وساعلمُهُ لك في المرة القادمة".

يوسف لم يكن يعرف شيئًا عن الموسيقى الأرجنتينيّة، ولا عن تلك الرقصة الغريبة، ولكن أراد بشدّة أن يُشبهها في كل شيء. لم يكن قد كتب شيئًا بخصوص ذلك، لكن لأجلها يخترع الكذب..

www.ibtesama.com/vb

كانت مريم تعيد صياغة كتابات يوسف من غير أخطاءٍ إملائيَّةٍ، فهو محترفٌ في ارتكاب الأخطاء اللُغويَّة الفادحة. لم يكُ يكتُب لأجل الكتابة، بل ليقول ما لا يستطيعُ قولَه لها بشكل مباشر. وكانت قد دقّقت لغويًا تلك القصاصة، وأرسلتها لبريدها، مثلها مثل الكثير من القصاصات التي ما زالت تحتفظ بها حتى الآن..

فتحت حقيبتها، وأخرجت اللاب توب. ثم فتحت بريدها، وبحثت في الرسائل المرسلة، إلى أن وصلت إلى إحدى الرسائل التي دقّقتها من قبل. قرأتها، وكانت ترتَسِم على شفتيها ابتسامةٌ لا إراديَّة..

***

صوتُكِ الأرجنتينيّ..

سنجلس أحرارًا على رصيف شارعٍ، في مفاصل بلادي، أسرق لك وردةً حمراء من حديقة الجار، لن يمانع.. أعرف ذلك، قال لي مرة "جمال الورد هذا كلُّه صدقةٌ جاريةٌ على روح زوجتي"..

يتجرأ الحمام ويجلس بالقرب منا يلتقط الحب،..

اقول: "أريد أطفالًا بعدد هذا الحمام"، تضحكين وتُسمّين كلَّ حمامةٍ كأنّها ابنتك، كأنّها ابنك..

حبيبتي... غنّي!

دقائقٌ من الخجل، ثم سرعان ما يطرُبُني صوتُك، أرقص التانجو مع صوتك الأرجنتينيّ، وينتهي الحلمُ بيديك تطوّقان ذارعيٌ وقِبلةٍ وتصفيقٍ حار..

www.ibtesama.com/vb

"من أين جاء كلّ هذا الجمع!" تقولين لي همس...

الول: "أبناؤك يُفشونَ سرَّ الحب...، هذا الحمام رسول الحب"......"..

كان هذا النص من الكتابات المفضلة، التي تُشعِل قناديل الفرح في قلبها، وإن قرأتْها يتألّق القدرُ برسم السعادةِ على وجهها. وكانت تلك طريقةُ يوسف في الحبُّ، يكتب، فتقرأ، تعي مَقصَدَهُ، يُفرِج عن قلبه، ويَظلُّ هكذا حُبُهُمَا صامتًا..

***

افاق يوسف من تلك التَجَمهُرات المُبعثرة لحُلمِه المُتراكم على الجدران، ربما ما رآه يُعطي تفسيرًا لسبب وجوده في السجن.

عادةً الأحلام -وحسب نظرية سيغموند فرويد- هي نتيجة الصّراع النّفسي، بين الرغبات اللا شعورية المكبوتة، والمُقاومة النفسية التي تقف عائقًا أمام تلك الرغبات.

ربما تكون الرغبة مريم، والمُقاومة النفسيَّة تتمثل في الاختلافات الطَبقيّة أو المجتمعيّة، أو حتى النرجسيّة، بين يوسف ومريم.

لكن ذاك الضيف الذي حلّ على الحُلم كان عائقًا تراكم فوق عالي، فوق عائق.

لا أحد يعير انتباهًا ليوسف، والده استشهد وأمه ماتت مذ كان طفلًا، وأقاربه يقيمون كلاجئين في لبنان وسوريا والسعودية. أما مصطفى أخوه، فلا يعلم عنه شيئًا منذ بدأ عمله في التنظيم، حيث

www.ibtesama.com/vb

اصبحت إقامته في كل يومٍ بعنوانٍ مختلف، من شقة لأخرى، ومن خنِدقٍ لنفق.

ما تأكد مِنه يوسف في سجنه أنه لم يكن سجينًا، بل هو مُحتجز، ولا تعلم السلطة شيئًا عن وجوده. بلطجةٌ من مسؤولٍ ما، لغرضٍ ليس مرتبطًا بيوسف بعينه، بل بشيءٍ آخر.

توّقف يوسف عن التفكير بالحلم، وبدأ يتمتم حالته المُزرية ويقول:

هنا مُضجر بصوت شخير الأدوات الحديدية، بجوار حيٍّ تقطُن فيه روحي الضّالعة، وبجانبي ثلاجةٌ تغدو كمنبهٍ لا يغفُو عن تذكيري بأنني ما زلتُ سجينًا.

مروحةٌ تأخذني إلى نوستاليجيا الهيلوكوبتر، صوت الأذان المُضطرب لعشرة مساجدِ في آنٍ واحدٍ، جدرانٌ رماديّة لم تمسَّها الحداثةُ بعد، عصفورٌ يخترق نافذتي، يأخذُ رزقةُ عن الأرض ويمضي.

ذاكرةٌ تختار ما يُعذّبُها، غطاءٌ قديم للنوم على النافذة يسدُّ ما يسدُّ من فضول الشمس. صوتُ الحداثة والسيّارات، متلازمًا مع خُطبة الجمعة، قلبٌ يبكي بلا صوت.

خلوة بطعم الزحام، المجد للمتشردين والغجر، المجد لسكان البحار، المجد لمن لم تَغتَصِبُ الحداثة عقله، المجد لمن أصيب بالصمم عن سماع رنين قلبه، والمجد للبليد الذي لا ينتظر نشرة الأخبار.

المجد لمن لم يَكبُتْ الحبّ في قلبه، وإن كان تدفُّقه انفجارا.

www.ibtesama.com/vb

لم تتقبّل مريم أن تكون رهينة النسيان، وتقبع في سجون الماضي تحت رحمة ذاك السَّجان. كلما مرّ في خاطرها، كأنما يُجْبِرها على السير بِــحاضرٍ مشلولٍ عاجزٍ، ينتظرُها في غياب يوسف.

تترصّد لحظات غفلتها عنه، التي لا تحدث إلا ما نَدَر، لتحظى بفرصة تمرّدٍ محاولةً الهروب إلى ما كان في سنوات قد مضت. لكن الزمن لا يزال واقفًا هناك دون تقدّم.. هذه اللحظات التي تعلن فيها انسحابها من كل الأزمنة التي تُحتّمها على نسيان يوسف.

كلنا لدينا سبب لكي نعيشَ من أجله بدلًا، لهذا قرّرت مريم أن تكون مهندسةً لُمستقبلها..

امسكت هاتفها، مستبيحةً حُرمة الصُّمود الفتّاك، الذي كان يمنعها من الاتِّصال آلاف المرات طيلة هذه السنوات، لتمرّ على أربع حروف كتبتها عن ظهر قلب "أحبُّكَ"، وضغطت الزر بحزم، دون أن تقاوم رغبتها بالإرسال -على غير العادة- وتتابع تأمل شاشتها برهبةٍ، بانتظار أن تظهر لها عبارة "تم التسليم".

***

مريم، الحاضرة في غيابها.. مريم، أيتها الأنس في وحدتيّ، يا خيالي الذي به أنتشي، وعليه أغفو وأصحو..

مريم، يا من فعلتُ كلّ شيءٍ كي أقول لكِ أحبك، ولم تعطِني فرصةً لأن أقول.

صرت أكتب لأجلك، أعزف الموسيقى لأجلك، مغرمًا بكتابات غسان كنفاني لأجلك، أهوى البرتقال لأجلك، لا يمرُّ صباحي من غير

www.ibtesama.com/vb

صوت فيروز لأشبهك، يا أنا على صورتك أنتِ، يا حاضرةً بالحنين، يا من تحاصرين تعبي، وترويِنَ أرقي، يا من تعبت من افتعال الصدف كي أراكِ، يا من تحمّلت سخافة عمّك، يا من اقترن كلُّ جميلٍ عندي بصورتك، يا أول وآخر أنثى لامس حضنها بشغفٍ حضني، يا مستبدةُ يا رحيمةُ، يا آخر سعادةٍ غمرتني قبل سجني، يا من اعتادت تجنّبي.. اريدك رغم الوجع، كطفلٍ ضربته أمُّه وعاد إليها يبكي.

يا من تتخذُ محاولةُ الاقتراب منك خطَّ النار، وقُربك عذوبة الماء، يا من لي عينيك حزن الناي ولسان حديثك الأمل.

أعوّل حظي على المستحيل، كي أحطَّ كحمامة على أزهار نوافذك.

لا غرفة مريحة في ذاكرتي غيرك ألجأُ لها.. كيف لي أن أحبك كل هذا العمر ولم أعترفْ صراحةً بذلك؟! هل تُحبين قربي مثلما أحببت قربك؟

لم أعترف لك يومًا بوضوحٍ بُحبي، لقد كانت تخيفُني لا مبالاتك، وثقتُك وأناقةُ تعامُلك مع الجميع. لم تشعريني يومًا بأني مميز، لم أحب من قلبي أحدًا غيرك.

حين احتضنتُك في المسرح أولَّ مرة، ثابرتِ لافتعالِ نظرةَ انزعاجٍ أرهقتْني وحطّت كل حواجز القدر أمامي، هل هذا جبروت امرأة؟ ليس جبروت، فالحبُّ ليس واجبًا، الحبُّ هواية، مادة اختياريّة بالتراضي، آخذها أو لا آخذها، حصة موسيقى أو حصة رسم، أبدًا لم تكن حصة فيزياء..

www.ibtesama.com/vb

في اليوم الذي تجرأت لكي أكون قربك، صرت أقبع بين جدرانٍ السحق، سلخت الكثير من الأيام من عمري وعمر غيري.. لماذا على الفلسطينيّ أن يقبل بنصف حياة؟، لماذا يقبل بنصف وطن؟ أو ربما اكثر من الربع بقليل. لماذا عليَّ أن أقبل بالعيش بنصف روح؟ لماذا لا استطيع أن أرقص معك على شاطئ البحر، ولا أستطيع تناول ساندويش الفلافل في شوارع الرمال، وفي حواري المخيّم؟

المخيّم.. آه المخيّم الذي تركتِهِ لتعيشي بعيدًا عني في تل الهوى، بعيدًا، حيث لستُ أنا هناك. حيث أكون هناك لأجلك. ها أنا أتجرَّد من وجع السجن وأرتدي وجعك.

احبُ الغمَّازتين على خديكِ، تُهيِّجان رُوحي، وتُطلقان سراح الفراشات لتدلّك خلايا قلبي. أحبُ ابتسامتك، أحبُ كلَّ شيءٍ لم أبح لك به إلاّ من خلال قصاصات أكتبها، وأنتِ لا تعين أنّها لكِ.

ماذا أفعل أكثر؟ كنت أترجم لك حبّي بكل التصرفات، حتى أني الهربت من حضنك.

كان صمتك بعدها محبِطًا، محبطًا لدرجة أن يقلب حياتي رأسًا على عقب، محبطًا حتى الرمق الأخير للتشرد. أصبح قلبي في مهبِ الريح، يطير بعيدًا قريبًا، ويحطُّ أينما وجد زهرة، شائكةً كانت أو ناعمة، جوريةً كانت أو نرجسة.. زهورٌ سواء كانت قبيحة أو مخدرَة.

انتظرك كثيرًا، حتى وأنا أراك صوب عينيَّ في مقر الجمعية. كنت اجلس بجوارك، يفصلنا شباك زجاجي، أنظر إليك، وأنتظر كثيرًا، حتى ملَّ المللُ مني.

www.ibtesama.com/vb

أنتظر شيئًا ما، شيئا غامضا يقودني إلى أن أكون معك، كانت علاقتي معك مُشرَّبه بكلّ عنصريَّات المُجتمع، دائمًا ما كنت أرى في عينيَّ أبي أنّي لستُ من ثوبك. كنت أشعر أن أبي خادمٌ لعائلتك، لم أرَ كل هذا الودّ بين والدي وعمّك إلا محضٌ نفاقٍ بين عبدٍ ومولاه، كنت أبغضُ عمَّك، أبغضه كثيرًا. كنت أكره أن يُمازح أبي بتصرفاته البغيضة، وأكره أن أرى أبي يبتسم، وكأنه سعيد بهذه الابتسامة. كان يستقوي بانفراده الطبقي بالمزاح مع والدي، يستطيع أن يمزح باليد، ولكنّ أبي لا يستطيع. يستطيع أن يصرخ في وجه أبي، وأبي لا يعرفُ إلا الصمت. أذكر يوم انزعاج عمِّك الشّديد من والدي، حين كان هناك خطأً في معدَّل عرض خراسانة سطح الطابق الأول لبيتكم. كانت ليلتها تأخذُني أفكارٌ غريبة، مثل أن أقتل عمَّك.. نعم، كانت نزعة العنف في داخلي تشتعل إذا أحسَّت وجود عمك، ذاك الطبقيُّ الجشع، الذي دائمًا ما يشعرني أني خادِمُكِ.. دائمًا كان مثل الحاجز المتين بيني وبينك، حين يتحدثُ عن مصروفك الأسبوعيّ، أشعر بالضعف، بالضعف الشديد، لأن مصروفك الأسبوعي يُضاهي مصروفي السنوي.

أريد أن أقول لك الآن شيئًا، أيّ شيء، لكن يعنيني كل شيء. أشعر بالاكتئاب من كل شيء، لقد كنت عائدًا لأعيد ترتيب حياتي وأيامي، كنت قد شعرت بأغنيَّتك لي أني بُعِثتُ من جديد.. وأن أبواب القدر فُتِحَت لي أخيرًا على مِصراعيها، وحانت الفرصة. أنت راشدةٌ الآن، وقادرةٌ على أن تكوني أيَّ شيءٍ دون عمِّك.

www.ibtesama.com/vb

متى ساخرج من هنا، وإلى أين أخرج؟ لماذا أنا هنا؟ هل هي صفعة القدر التي تلازمني كلما اقتربت من السعادة؟

لكن معك دائمًا يحكُمُني الأمل.

اذكر قول محمود درويش "نُعانِي مِن مرضٍ عُضال اسمهُ الأمـــــــل!" أملٌ لا شفاء منه، أملٌ أن أكون معك.. أمل أن أكون والدًا لأبنائك. لم يعدْ قلبي يحتمِلُ الصحوَة، أريد أن أعيش في غيبوبةِ حُلمٍ معك إلى الأبد.

مرت ثماني ساعاتٍ على الرِسالة (مريم)

مرت ثماني ساعاتٍ، مع كل ساعةٍ تمرُ دون ردٍ من يوسف كان يزدادُ نزيف قلبِها، طلقةٌ تَقتَنِصُ صميم نرجسيَّتها.

لا شيء، لم يصلني بعد شيءٌ منه، كم أكره نفسي، لم يكن عليَّ أن اضعُفَ أمامه، لا يوجد أي مبرر كي لا يجيب على رسالتي، هل ارتكبت جرما؟ هل راهن على أسري أمام أصدقائه؟ هل كسب الرهان؟

أكرهك بجرفٍ فلكيٍ للكراهية، اخرجْ من تفاصيل اللحظة، يوسف لا أريد أن أتلعثم باسمك أكثر، كيف تلفظُ رسالتي كنفخةٍ في وجه الرماد، هل كانت رسالتي رمادًا؟ ولماذا لم تتصلْ؟ لماذا أنا من بادر بالاعتراف، كُنت تموتُ بحقٍ لصدفةٍ بها تلقاني.

هل تنتقم مني؟!

www.ibtesama.com/vb

هل وضعتُ السُّم في إنائي برغبتي؟ أكره هذه التكنولوجيا.. أكره زر الإرسال، أصابني بطلقة، أنا التي تجنبت الرجال بكافة أصنافهم، لم أُدْخِلَ عتبة قلبي لا لغنيٍّ ولا لفقير، لا دكتور ولا تاجر.. لا أحد.

كيف لك أن تفعل ذلك بي بمحض إرادتي؟!

مرت ثماني ساعات، وتسع وعشر.. ومرَّ يومٌ كامل، لم يُجبْ يوسف بشيء، كانت تقاوم رغبتها المكبوتة بالاتِّصال عليه ورشقه بسيلٍ من الشتائم. كانت حتى تريد أن تقول له بأن من أرسل الرسالة ليست هي، لكنها تردَّدت، فهي تعلم أن ذكاءه أكبر من أن يصدق هذه السخافة. أصيبت بحالة قهر، توليفة ما بين الضّحك والبكاء.

هكذا صنعت التكنولوجيا الحياة، كل شيء سريع الانهيار، تبني الحبَّ في عشرين عامٍ، وتُدمرُه في لحظة.

يوسف، سأخلعُ وجودك من حياتي كما أخلع ضرسًا فاسدًا يهوى وجعي. أكرهُك وأكره عَلْقَم قهوتك، أكره كلَّ خطايا قلبي الذي عاملك برأفة، أكره كل شيء يربطني بك. أكره أن أعيش الحب كاللصوص، سيكون اليوم آخر موعدٍ لي مع هواك.

كثيرٌ من النساء تعبِّرن عن المهن بالصمت، أو بالتجاهل حين يصبحن في قمة المهن. لذلك سيكون اليوم آخرُ يومٍ يا يوسف، لن ارسل شيئًا، ولن أُحدِّث ظِلي عن هذا الشرخ في قلبي، سيكون اليوم آخرَ يومٍ يا حبيبي..!

هكذا المُغرَمون حتى الرمق الأخير، أتفه الأشياء قد تُضمر علاقاتهم، يغدو التعامل مع حبهم، كالتعامل مع قنبلة!

www.ibtesama.com/vb

يسمع ضجيج الزحام حول المكان، يرى من شباك سجنه مكتب العقيد، شابٌ يافعٌ أنيق يخرج ويدخل، ظنَّ لوهلةٍ أنَّه أحد الملازمين، لأنه لم يكن يرتدي زيَّ الشُرطة. اتضح بعد ذلك أنَّه من حاشية العقيد، يعمل لخدمة مزاجيَّة العقيد، قهوة.. شاي.. مكسرات.. وأحيانًا مشروبات روحانية.

أصوات السيارات تتغنى بأناشيد التنظيمات، والبرامج الانتخابيَّة، وكثيرًا من الأحيان نداءاتٍ في معجونٍ طيَّاتها التخوين.

ظلَّ ينظر ببعدٍ إلى تلك المسافة القصيرة على وسع الحديقة، التي تفصل بينه وبين ذاك الذي يحتَجِزُه بغير وجه حق.. ربما حق هذه اللحظة. أنهكه الانتظار، كان لا يُسلِّي قلبه شيء غير ذاك الحضن في المسرح، الحضن الذي يشبهُ قبلة.. كان يختزل هذا المشهد بحذافيره ليعشي عليه منذ أعوام.

تحوَّل شرود يوسف من الواقع السجين إلى الحب، اسند ظهره إلى الحائط، وبدأت تتسرَّب مريم داخل مسامات جلده.

عادة ما يُركِّبُ بخياله صورًا حميميَّة تجمعه بمريم، بحرارة جسدها حين تلاصق جسده بمحض إصرارٍ، وأنفاسها التي كانت تأتي وتذهب بسرعة الريح.. كالإعصار.

ويهذي بمريم:

ملمس عنقك مريم، وانسيابه الحريري، أزيز التردُّد والخوف، تَزَرُّ الدمعة من شدة الخجل..

www.ibtesama.com/vb

أنفاسك ثم

أنفاسك .... ثم

أنفاسك... ولآخر نفسٍ في عمري..

أشتاق أنفاسك مريم!

تتوجّسي عُزلتي بصوت يئنُّ باسمك..

متورِّطٌ هذا السِّجن معك، كلاكما مشانقٌ لا مفر منها..

لكِ يا مريم طقوس مريبة، تجتاحينَني بلا أدنى مقاومة، وتهاجمينَني بغتة من مداخل وحدتي..!

كم أحبُّ أن أناديكِ حبيبتي باسمك مريم، أخاف من صيغة الملكية، أشعر أنها بشيء أو بآخر فيها خيطٌ من العبودية..

تقول فيروز: "روح اسألون عاللي وليفُه مش معُه مجروح.. بجروح الهوى.. شو بينفعُ.. موجوع.. مابيقول عاللي بيوجعُه"

تعطيني توصيفًا لحال حبي الصامت، الحب الذي أغلق صوته حال أهلي وأهلك، عقلي وعمُّك.. أنا الذي منذ قرَّرت أن ألاحق حضورك من بعد الغياب، أصبح نصف نومي يقظة!

أتذكرين طفولَتنا التي نجت بأعجوبة من سموم العمر؟

أذكر ذلك اليوم الذي رأيتُكِ فيه، كنت عائدًا من المدرسة، وتبكين أنتِ لما حلَّ بك من معلمة الفصل المجنونة. جئتُ صوبك وأنت جالسة على باب المدرسة، قلتِ "لم تسمح المتخلفة معلمتي

www.ibtesama.com/vb

بدخولي الصف لأني كحلتُ عيوني"، وكان قد اختلط الأثمدُ الأسود في عينيك بالدموع.. كان وجهك وقتها جذابًا، يغزل بقلبي صوف الرجولة. أخذتك بيدي إلى صدري، كنتُ خائفًا ويغلي في عروقي الحنين، وأنتِ دافئة جدًا كنت..

ما لا تعرفينه عن هذه الحادثة، أنّي ما زلت أحتفظ لليوم بقميصي الذي ما زالت آثار كحل عينيك موشومةً عليه، احتفظت به كما هو.

رغم معرفَة مصطفى بأنّ القميص لكِ، ويعرف أنّي أحتفظ به منذ أعوام، إلاّ أنّه مثل عمك يتلذّذ في تحطيمي. أتعرفين، أشعر أن مصطفى وعمك متشابِهين في النتائج، متناقِضين في الأسلوب، كلاهما تجري في شرايينهم شرقيةُ الأفكارِ. فشرقيّةُ الأفكار كقطعة إسفنج قديمة مشربة بكلّ أوساخ الماضي، رائحتها النتنة نرجسيّة تحتلُّ أريج الزهور، لا تقودنا إلاّ إلى مزابل الأحوال.

أنا لا أقسو عليهما، هم هكذا التطرف وضده المتطرف، لعنَتَا عمري وعمرك.

حتى وأنا أحلم بك، يلاحقني أحدهما داخل حلمي، وينزع حلمي ويدنّس قدسيَّته.

متى ساخرج من هنا، لأعترفَ لك أنّي منذ نعومة أظافري وأنا أعيش دور الجاسوس على أخبارك؟ كم أتوقُ لأن تسمعي اعترافي بلا أدنى تردد، وهو يتلَعثَمُ بكلمة أحبك.

www.ibtesama.com/vb

منذ خلقت أحبك..

عَطِشٌ إليك هذا القلب، كما الصحراء للماء..

عَطِشٌ إليك بقدر آلام المخيّم، بقدر أوجاعي الدفينة برمل الكبرياء، بقدر عزّة نفسي التي تقتل..

***

سوق الزاوية يقع في منتصف غزّة، كان يعرف بسوق "الغلّة" في الحُقبة العُثمانيَّة، من أشهر أسواق المدينة، تأسَّس منذ أكثر من ثمانية قرون. الروايات حول اسمه كثيرة، لكن أكثرها مصداقية كانت بأن هناك رجلًا من أثرياء الهند جاء إلى غزة وقام ببناء وتأسيس تلك الزاوية، واستقدم هنودًا للعمل في تجارته هناك، وصارت تعرف هذه الزواية بهذا الاسم، لتعوّد الغزيّن على وصف العنوان بزاوية الهنود. وقد جُدِّد بناؤه في عام ١٢٣٦ هجري، وأصبح أكبر الأسواق في غزة.

ويجمع السوق الأثريّ كل طوائف المجتمع الفلسطيني طوال العام. فيه تجد كل أصناف الخضروات والفواكه، واللحوم، والبهارات والمخللات التي يعشقها الشعب الغزيّ، وكلّ الأدوات المترلية أيضًا.

وهناك تجد كل ما لذّ وطاب من الحلويات بأشهر أنواعها "الكنافة النابلسية"، "البقلاوة"، "الهريسة"، "الغريبة"، "المعمول". وفي رمضان، يتحوّل هذا السوق إلى ما يشبه مهرجانًا، يكون في أجمل استعداداته، فيه كل طقوس هذا الشهر، وتزداد الأصناف والأطعمة.. قد يكون

www.ibtesama.com/vb

المكان الوحيد الذي يجعلك تشعر بكامل تفاصيل التقليديّة العريقة لهذا الشهر، حتى في أنواع المأكولات التي تجدها هناك..

بجانب زاوية الهنود مسجدٌ صغير، أمامه عدد من "البسطات"، وإن دخلت تلك المنطقة، ستجد الباعة أيضًا في كل المناطق حول السوق.

يدخل مصطفى المسجد مبتسمًا، برفقة التين. يشعر بنشوة الانتصار دائمًا، ومن الإيمان الكثير. تعوَّد مصطفى على الحفاظ على هدوئه في أي نقاش، فهو يعيش مع أخيه الذي يحترف النقاش بالضدِّ ضدّه. هذا الجو الذي تربيًا عليه خلق لديهما حالة من البرود في شخصيّتهما مثيرةً للإعجاب، فمن الصعب جدًا أن يستفزّهما أحد، كلاهما مُستَفِز لا يُستفَز، مبالٍ ولامبالٍ.

دخل مباشرةً إلى غرفة إدارة المسجد.. مصطفى معروفٌ جدًا على مستوى مساجد القطاع، وخصوصًا تلك التي تفيض بها الحواري والمخيمات. قام بتوقيع بعض البيانات التنظيمية، لإرسالها إلى الجهاز الإعلامي سريعًا..

ثم جلس على الكرسيّ المتحرك مبتسمًا، وقال لمرافقيه بأنه سيتم نقل الشباب الذين أخرجهم من السجن إلى العمل السري للجهاز العسكري. يجب أولًا أن يكونوا بعيدين عن الأنظار لفترة، وبعد ذلك ينقلهم للعمل في الجهاز العسكري، حرصًا على سريّة النقل ولمراقبة تحركات الشباب أنفسهم، ودراسة أحوالهم وأحوال المحيط المجتمعي لهم علاقاتهم.. دراستهم.. أصدقائهم.. المساجد التي يصلّون بها..

www.ibtesama.com/vb

كل شخصٍ، حتى لو كان عنصرًا نشيطًا في التنظيم، حين يُتخذ قرارًا بضمه للجهاز العسكري، يتمُّ فحصه أمنيًا مرة ثانية، وكأنها أول مرة، ويتم تنفيذ العديد من اختبارات الثقة عليه، ومراقبته ثانية بثانية، حتى في أسلوب نومه، وما إذا كان يتكلم أثناء نومه أو لا..

في هذه الأثناء، كتب مصطفى بيانًا يوضح فيه ملابسات حادث الاعتداء على مركز الشرطة، حيث نفى أن يكون هناك أي علاقة للتنظيم بالحادث، ولا لهؤلاء الشباب الذين تم إخراجهم من السجن، وذكر أنهم كانوا يعملون في الإطار الطلابي للتنظيم، وتم طردهم لأسباب خاصة بالتنظيم. وختم البيان بالإشارة إلى أن السلطة الحالية غير قادرة على حماية مقراتها، فكيف لها أن تقوم بحماية هذا الشعب.

وأضاف أيضًا أن السلطة لا تفوّت أي فرصة لتشويه صورة التنظيم، خصوصًا في المرحلة الانتخابية لمجلس الشعب، التي يشهدها هذا البلد، وختم البيان .. "والله ولي التوفيق".

ترتدي معطفها الأسود، تلحف بيديها كوب النسكافيه الساخن، وشالة سوداء أنيقة تلتفُّ برقةٍ على رقبتها، كيرقةٍ تغزلُ الحرير. تحاول أن ترى أحدًا يمرُّ سهوةً في البيت، كي يحضِر لها شاحن الهاتف، فلا تجد. تغالبُ كسلها، ثم تعود تتخبَّطُ ساقاها الناعمتان في بعض من البرد، كما تتخبَّط الأغصان ببعضها في الريح. تبحث في ذاكرة الهاتف عن ذكريات تلهبُ قلبها، ثم تندم لأنها تذكرت يومًا أنها طلبت من سكرتيرتها أن تتخلص لها من كل ما تحتويه الذاكرة، أو إن جاد التعبير كل ما يربطها بالماضي من كتابات كانت تحتفظ بها له.

www.ibtesama.com/vb

لا شيء على الذاكرة..

تشعر بأنّها هذه الأيام الثلاثة تعيش وحيدةً في صحراء لم ينبت فيها الحنين، فرذاذ قلبها لم يَسقِه بعطف، بل قطّع منافذ الماء والهواء عنه. منذ تجاهل الرد على الرسالة، لم تكن تعرف أنها ستعيش وحيدة وسط الزحام.

استندت إلى الوسائد المخمليّة، لا يذكّرها به إلا أصوات العصافير وأزهار الطريق وزجاجة العطر، وأغنية ألقتها على مسامعه عند سلم البيت.

في نظرها كانت حالة حبٍّ مقتضبة!

وما إن غفت عينها على الوسادة، وبعد ثلاثة أيام من تجاهل يوسف الرد، وصلت لها رسالة. كانت خائفة جدًا من أن تكون رسالة إعلانيّة من شركة المحمول أو من شخصٍ آخر. فقد تعذّبت على مدار ثلاثة أيامٍ بسبب تلك الرسائل. كانت تكره جدًا ذلك، فقررت أنْ تقاوم رغبتها وألاّ تفتح الرسالة..

مرّت دقيقةٌ.. دقيقتان.. ثلاثة..

ثمّ قامت من غفوَتِها عن السَّرير باندفاعٍ، وأمسكت الهاتف كالمجنونةِ.. قرأتْ الرسالة، وضَحِكت كثيرًا..

انتابتْها حالةٌ هستيريّةٌ من الضحك والفرح ومن الجنون.

صارَتْ ترقص وتُغنّي مبتسمةً جدًا لأمّ كُلثوم:

"وصفولي الصبر،

www.ibtesama.com/vb

لقيته خيال وكلام في الحب..

كلام في الحب،

يا دوب.. يا دوب يتقال..

أهرب من قلبي أروح على فين

ليالينا الحلوة في كل مكان"

ضحكت بعمقٍ كضحك المجانين.. بحريّةٍ ضحكت، كما لمْ تضحكْ من قبل. جعلها يوسف تضحك من قلبها بغيرِ إرادة، من غير تخطيطٍ، لكنّه كان السّبب..

قالت لنفسها، بعد أن ارتَمَتْ كالذبيحة على سريرها:

يوسف الغائب، كنتُ سأجرح جسدي بأيِّ شيءٍ كي أُشغِل عقلي بوجعٍ أقلّ حدةٍ من التفكير بك.. كاد سوء الظّن يَشنُق كبريائي، أنا سعيدةٌ.. سعيدةٌ جدًا

ثم عادت تُغنّي:

"عيني عيني على العاشقين

حيارى.. مظلومين..

عالصبر مش قادرين..

ودارت الأيام.. ومرت الأيام"

كان نصُّ الرِّسالة عبارةً عن تقريرٍ من شركة الاتّصالات، تُفيدُ بتعذُرِ تسليم الرسالة، لأنَّ الهاتف غير متاح!

www.ibtesama.com/vb

يصدحُ الأداء السّريع في الطّابق الأرضيّ، نساءٌ يتسارعن في إعداد الكعك، إحداهن تخبز في الفُرنِ، وأخرى تأتيَ بالكعك على صواني الألمنيوم، وفريق الحشو يدوِّر العجوة مع العجين، وطفلةٌ تُقطِّر الصّواني بزيتِ الذُرة، وتمسحه في أرجاء الصّينيّة، ثم تبدأ بترتيب الكعكات تباعًا، بعد أن ينجزها فريق الحشو.

العمل لتحضير العزومة في منزل رأفت، موظّف العقيد نبيل ومدير مكتبه، كان يتمُّ على قدمٍ وساق، كأنّها خليّة نحلٍ، مكوَّنة من والدته وزوجته وأخواته وبناتهن.

وكانت أطباق الطعام تُنقل إلى طاولة السفرة في الطابق الثاني من سلُم إلى آخر، بتوتُّرٍ وتركيز، كأنهن في اللحظات الأخيرة للامتحان. عدد الأطباق كان مبالغًا به، ربما لو تناول الشّخص ملعقة من كلّ طبقٍ لأحسّ بالشبع قبل أن يتذوّق كلّ أصناف الطعام.

اعتاد رأفت أن يفعلَ أيَّ شيءٍ في سبيل رضا العقيد. كان وفيًا له أكثر من وفاء الكلب لصاحبه، وكان العقيد يثقُ به جدًا، لدرجة تسجيل ملكيّة أراضٍ وعقاراتٍ باسمه، كي يُبعِد الشُّبهات عنه. وكان رأفت لا يترك فُرصةً إلاّ ويُثبت فيها صِدق إخلاصه لها للعقيد.

اتّصلت زوجة رأفت به، وأخبرته أنّ طاولة الغداء صارت جاهزة، وبادرت بذكر الأصناف التي يُحبُّها العقيد، من ورق عِنب، ومحاشي، وفطائرِ بالسبانخ، والمقلوبة والمفتول، والكعك. أبلغها أنّهُ سيكون في البيت خلال ربع ساعة، وطلب منها أن تتّصل بأخوته كي ينتظروه عند باب المنزل، ثم أقفل الخط.

www.ibtesama.com/vb

طرق رأفت الباب على مكتب العقيد، وقال: الطعام جاهز الآن والسَّيارة في انتظارنا لنتحرك.

هزَّ العقيدُ رأسه وقال: لم يكن هناك داعٍ لأن تُتعِب نفسك والأهل بهذه العزومة.

قال رأفت: كلُّه من خير سيدي.

أخذ العقيد هاتفه من على الطاولة، وضعه في جيبه، وأرجأ الكرسيَّ المتحرك إلى الخلف، وأخرج المفاتيح من جيبه وفتح الخزنة، وأخرج زُجاجة ويسكي من نوع جاك دانيل، وقال لرافت: خُذْها معك لكن ضعها في كيسٍ اسود.

أخذها رأفت، وتحركا سويًا إلى سيَّارة الشرطة. ركب العقيد ورأفت السيارة، ثم تحرَّكت، وتحرَّك خلفها سيارة مرافقة أخرى.

وخلال عشر دقائق، وصلا إلى المنزل. لم يكن يبعد كثيرًا عن منطقة السَّرايا، فقد كان يقطن في حي الثلاثينيِّ، الأقرب لمحل عمله.

وسط ترحيب أُخوة رأفت، دخل العقيد البيت، وكانت "زغرودةُ" والدته ودعواتها حاضرة.

توقَّف العقيد عند مُنتصف السّلم عند سماع دعوات أمِّ رأفت له، وقال لها: لا تنسِي أولادي من طيب دعواتك..

العقيد يتمتع بحسٍّ اجتماعي عالٍ. فبرغم وضعه الممتاز عمليًا، إلاَّ أنه كان يتعامل بطيبةٍ مع أغلب طبقات المجتمع، والناس الذين يضطرُّ لمقابَلتهم، على عكس الآخرين من أوساط السُّلطة.

www.ibtesama.com/vb

أثناء تناوله الغداء، جاء اتصال بالعقيد من مكتب عمله.

– سيّدي لقد قبضنا على ثلاثةٍ من الرّجال الذين تمّ تهريبُهم من مركز الشّرطة. كانوا في شقةٍ في حيِّ النّصر، وتمّ التّحفُّظ عليهم وعلى الأسلحة الموجودة بالشقة.

تنهّد العقيد وأخذ بهدوءٍ من الطعام قطعة "محشي" وقال:

اطلق النار على أرجُلِهم، اجلسْهم على قطع زجاجٍ، ودعهم في حفلة التعذيب طوال اليوم، لا يخرجون إلاّ بعاهةٍ مُستديمة، لا يسلم منهم شيئًا إلاّ لسانهم.

ثم ختم الاتّصال بشتمِهم بألفاظٍ نابية، وأكمل طعامه، وسط حالة ذهول من أخوة رأفت والحاضرين.

تدخّل رأفت فقال: هؤلاء جواسيس تمّ الكَشفُ عنهم وعن شبكة تجسّسٍ كاملة، وتمّ تهريبُهم من السّجن حتى لا يعترفوا عن بقية العملاء.

ثم استرسل بشرح كلّ ما لذّ وطاب من تهم الخيانة، فأخذ العقيد على عاتقه تغيير الموضوع، بالحديث عن لذّة الطعام ومذاقه.

عندما أنهى الجميع طعامهم، ذهبوا إلى الرُّوف لتناول المشروب. كان اخوة رأفت يعملون سابقًا داخل الأراضي المحتلّة، وكانوا جميعًا يعاقرون المشروب، أسعَدَهم ذلك الخمر المُستورد الذي يُحضِرُهُ العقيد من داخل فلسطين المحتلة، فلقد كان يحمل العقيد تصريح ٧١١ يسمح له بالتنقل إلى الضفّة الغربيّة وإلى فلسطين الداخل.

www.ibtesama.com/vb

أحسَّ العقيد بنشوة التملُّك، يرى كلَّ من حوله كأنَّهم كائنات أقلُّ درجةٍ منه، رغم أنَّ ولاءهم له مُنقَطع النظير.. تلك نفسيَّة أبناء السلطة والمال، حتى وإن أخفوا ذلك. غالبًا تختلف درجات هذه الشَّهوة تبعًا للمستوى العقليِّ التعليميِّ لكلِّ شخصٍ من هذه الطبقة، والعقيد كان مثقفًا جدًا، وشيوعيًا سابقًا.

سرق الوقت العقيد، وأخذ الضحك على شِدَّتِهِ يُدمِعُ العيون.. كانت الفواكه والمكسَّرات والحلويات لا تتوقف أبدًا، والتمر المرافق للمشروب دائمًا. مرَّت ٨ ساعات على الجلسة، حتى أصبحت السَّاعة العاشرة مساءً.

لا أحد من الأطفال أو النساء يقترب من الرُّوف الذي يجلس فيه العقيد ورأفت وأخوته. كانت الأحاديث تجرُّ بعضها، وكان يتلذَّذ العقيد بالحديث عن سفريَّاته إلى مصر ولبنان، وعن الأيَّام التي قضاها في تونس مع رفاقه في الحزب الشّيوعي هناك، قبل أن يتركهم ويعود إلى أخذِ حِصَّته من السُّلطة، التي خرجت نِتَاج اتِّفاق أوسلو في ١٠ أكتوبر من العام ١٩٩٣.

عند السَّاعة العاشرة والنصف، جاء اتِّصال من مكتب العقيد، فأعطى العقيدُ لرأفت الجوَّالَ ليُجيب عنهُ، وليتخلص من عبءِ الرَّد على المكالمة.

أجاب رأفت على الجوَّال بتَمْتَمَاتٍ صغيرة، ثم أقفل الخطَّ قائلًا: لا تهتم.

تغيَّرت ملامح وجهه، ثمَّ ذهب صوب العقيد، وانحنى قُرب مسامع العقيد وقال بصوتٍ منخفض له:

www.ibtesama.com/vb

- الشباب ماتوا تحت التعذيب.

***

شقةٌ كبيرةٌ في حيٍّ أبراج المقُوسي، في إحدى الغرف طابعة ومجموعةٌ كبيرةٌ جدًا من أوراق A٤ فارغة، حيث كانت تُطبع بيانات التّنظيم في هذه الغرفة، ثم تَنتَشر في أنحاء المدينة. غرفة أخرى مؤثّثة صغيرة، فيها مجموعةٌ من الفرْشات، ينام فيها أحيانًا أفراد التّنظيم. لديهم في الغرفة أيضًا غازٌ صغيرٌ، شاي ليبتون، سُكّر، ثلّاجة ماء صغيرة.. لا غير.

الكثير من صور شهداء التّنظيم مُعلّقة على الجدران، على كل حائطٍ تجدُ ما لا يقلُّ عن عشر صور لشهداء.

الإضاءة خفيفة أقرب للظُّلمة.

في الغرفة الثالثة، توجد طاولة مكتب، وعليها حاسوب، ويجلس خلفه أحد أفراد التّنظيم. يُستخدم هذا الحاسوب لأغراض التصميم التّابعة للتنظيم، وأيضًا يتمُّ هنا إرسال التّصريحات إلى إدارة الموقع الإلكتروني التّابع للتّنظيم، حيث العمل الإعلامي لا يتمُّ في مكان واحد. يتمُّ توزيعه على أكثر من شخص وأكثر من مكان، حتى لا يسقط الموقع في أيدي أحد، في حال تمّ اكتِشاف مقرّ الجهاز، ولأغراضٍ سريّة وأمنيّة أُخرى.

خلف الشّاب يقف مصطفى، ليعطيَ ملاحظات على فيلمٍ كرتونيٍّ ساخر من إنتاجهم، للسُّخرية من أحد قيادات السُّلطة، وذلك لنشره

www.ibtesama.com/vb

على اليوتيوب، ومن ثم تحريك القنوات الإخبارية الموالية للتنظيم لإثارة ضجّةٍ عليه، تتخذ ليوم أو ليومين قضيّة رأيٍّ عام.

على نغمة أنشودة "فتت روحي يا شهيد"، رنّ هاتف . على الهاتف أحد أفراد الشّرطة العاملين في مكتب العقيد نبيل، وكان جاسوسًا لصالح التّنظيم، ليتقاضى مالًا مقابل ذلك.

خرج مصطفى من الغرفة، وذهب إلى الصالة وأجاب. وبعد السلام، قال: هل من أخبارٍ جديدة؟

– الأخبار سيّئة أخ مصطفى

– خير؟

– شبابكم ماتوا تحت التعذيب

– أيُّ شباب؟!!!

– الذين تمّ تهريبهم من مركز الشرطة

تمالك مصطفى أعصابه، ثم أشعل كلّ غضبِه وضرب بشدّة على الحائط، فسال من يده الدم.

استطرد الجاسوس حديثه قائلًا:

– وشقّة المكتب الإعلامي، وحواصل تخزين القماش والأوراق للتنظيم تمّ التبليغ عنها، وستخرج دوريّة الساعةَ الثانية صباحًا لمُداهمتها واقتحامها، أي بعد أربع ساعاتٍ تقريبًا من الآن..

www.ibtesama.com/vb

انهى مصطفى المكالمة معه، وأسند ظهره إلى الحائط، ولم يستطع تمالك نفسه، فجلس القُرفُصاء مستندًا إليه.

خرج مرافقه من الغرفة بعد أن سمع الصوت، وسارع إلى مصطفى ورأى الدمَّ يسيل من يده. توقّف لوهلةٍ، لم يعرفْ كيف يتصرف، نادى على باقي المتواجدين في الغرفة، وسألهم عن اليود أو أيِّ شيءٍ آخر ليُداوي جُرح مصطفى.

نادى مصطفى عليه وقال له: هناك أمرٌ أهم. قُبض على الشباب اليوم، وأثناء التعذيب قُتلوا. البقيَّة في حياتك، أخوك استشهد.

كانت الفاجعة أنَّ واحدًا من الشباب الذين ماتوا هو أخٌ لمرافق مصطفى المُتواجد معه، وكان له اسم حركي هو أبو صهيب..

أصابتْهُ نوبة غضب شديدة، أخذ السِّلاح من المكتب، وأراد أن يُهاجم مبنى السَّرايا، ولكنَّ المتواجدين قد أمسكوا به.

كان يصرخ بحرقةٍ، وينادي: أخي.. أخي!

حاول مصطفى تهدئته: سنأخذ بثأر أخيك، لكن في الوقت المناسب. يجب أن نترك المكان الآن..

ثم وضع يديه على كتفيه وقال: كنْ رجلًا، البكاءُ للنساء فقط.

وطلب مصطفى من الشباب إخلاء المكان، وأَخذَ الحاسوب وكلَّ شيءٍ مهم، وحرقَ ما تبقى.

اتصل بالسَّائق، وطلب منه أن يأتيَ إلى أمام الشُّقة. استغرب السائق حيث إنَّه عادةً يجب أن تبقى سيَّارات التنظيم واقفة بعيدًا عن

www.ibtesama.com/vb

أيّ تجمعٍ أو مقرّ للتنظيم. كان مرافق مصطفى قد انهار على السّلم، فحمله مصطفى على كتِفِه وخرجا من المبنى إلى السّيارة، وانطلقوا.

ثم جاءت بعد أقلّ من نصف ساعة سيّارة جيب، حمّلوا فيها الأغراض المهمة والحاسوب، وانطلقوا أيضًا، بعد أن أشعلوا النار في الشقة.

أخذ العقيد زجاجة المشروب وملأ كأسه دون أنّ يمزجه بمشروب آخر. بالعادة يمزج العقيد مشروبه بالتفاح حتّى يتحاشى مرارة طعمِه. لكنّه هذه المرة شرب الكأس كلّه دفعةً واحدة، نفض يديه كأن مسّتهُ القشعريرة. ثم تنفّس، ومسح بيده على أنفه وقال:

– كلابٌ وماتوا، لنرى أيًا من التنظيمات ستبناهم، أليس تنظيمهم تنصّل منهم، فلنرى ما عِندهم الآن..

وأخذ يصبُّ في الكأس مرّةً ثانية، وأشار إلى مصطفى بأنْ يُجهّز السيارة ليذهبا إلى المكتب.

قال رأفت: سنشرب فنجاني قهوة ونذهب.

■ قهوة سادة، بلغ الشباب يجّهزوا السّيارة

شرب رأفت والعقيد قهوةً، فأفاقا قليلًا من سكرتهما، ثم توجّها إلى المكتب.

دخل العقيد مع رأفت مكتبه، ونادى أفراد الشرطة الذين كلّفهم بتعذيب الشّباب، وطلب منهم أن يرووا له ما فعلوه بالضبط..

www.ibtesama.com/vb

قال أحد الأفراد: لقد طلبت منا استجوابهم كما جرت العادة، فلجأنا لاستخدام الكهرباء. ولأنّ أجسادهم كانت مبلّلة بالماء، نتيجة تعذيبهم بالماء الساخن، لم يتحملوا التّيار الكهربائي، وماتوا على الفور.

بَصَقَ العقيد عليه ثم صرخ:

أنتم مجانين، كيف تعذّبوهم بالكهرباء وهم مبلّلون بالماء؟! أنتم حثالة، حمير، أولاد عاهرات.. قلت عذبوهم لا أن تقتلوهم!

قال لرأفت: خصم راتب ثلاثة شهور، وشهران حبس انفراديّ.

أومأ رأفت برأسه، ثم طلب عناصر شرطة عن طريق جرس النداء الموجود على مكتب العميد. جاء عنصران من أفراد الشرطة وأخذوهم إلى السّجن. وسأل العقيدُ رأفت: ماذا نفعل بالجثث؟

قال رأفت: لا أعرف، لكن يجبُ أن يتمَّ ذلك بسرعة، دون أن يصل الخبر إلى الإعلام.

استجمَعَ العقيد أنفاسَهُ، وجلس خلف مكتبِه. تناول حبوبًا مهدِّئة، ثم أشعل سيجاره، وقال:

أريد أن تُطلق عليهم الرّصاص وترمي بجثثهم في منطقة بعيدة عن السُّكان. التّنظيم تنصّل منهم، لذلك لن يستطيعَ إعلامُهم مُهاجمتنا، وسنكون بمنأى عن جمعيّات حقوقِ الإنسان. وسَرِّبْ معلومات عن المكان الذي ألقينا فيه الجُثث بين عناصر المركز، ليَعلمَ جواسيسُهُم أين يجدوها، وقم بذلك بسرعة ليَصِلوا لها قبل أن تتعفَّن..

www.ibtesama.com/vb

أفراد الشّرطة يسمُّون رأفت بكلب العقيد. كان ينفُّذ كلّ أوامرِه بحذافِيرها، وبتفاصيلَ مُتناهية، بكافة شيطانيّتِها "ففي التفاصيل تكمن الشياطين"..

هذه المرة الأولى التي يتعامل فيها مكتب العقيد مع الجثث، وسيتطلب الأمر استغلال بيان التّنصُّل الذي أصدره التّنظيم. شعر رأفت بالرعب من كلام العقيد، لا يريدُ توريط نفسه بقضايا الموت، فالعقيد يمشي دائمًا بحراسةٍ على الأقل، وكلمة جواسيس تعمل لصالح التنظيم في مكتب العقيد أشعَلت الخوفَ في عقله. أصبح الخوفُ نارًا لا تنطفئ، أيقظتْ كلّ خلايا عقلِه، لكن لا مفر، سيُنفّذ ما قاله العقيد حرفيًا. وهذا ما حصل.. نفّذ بمُساعدة عناصر من مكتب العقيد ما طلب، ومرّ أسبوعٌ على ذلك..

لم يكن هناك أيُّ ردة فعلٍ من التنظيم، لا نعي، لا جنازة، لا شيء. ذهب رأفت بنفسه إلى المكان الذي ألقى به الجثث، لم يجدْ الجثث.. لا معلومات، لا تفاصيل، تدفقت في دمِهِ عشرات الظنون المخيفة.. بل مئات.

***

استيقظت في الصباح باكرًا، أعدّت قهوتها برفقٍ كما الريشة في يد الفنان، انْتَشَتْ بعَبَقِ الهيل، كان يطير في الهواء مُحْتَضِنًا معه رائحة البنّ الأسمر. لا يعكرُ صفوَ قهوتها السُّكر، مُرَّةٌ كما تعلمتها من يوسف.

فتحت جزءً من النافذة، وأسدلت السّتار. كان ضوء الشّمس يشكّل على سريرها بخطوطٍ أفقيّة، أشعة الشمس التي تقتحِمُ غُرفتها

www.ibtesama.com/vb

تشكّل حركة تناغمٍ ما بين الديكور والطبيعة. في الشّتاء أو الصّيف، في الغروب أو الشّروق، في كلّ الأوقات تتداخَلُ الطّبيعة مع ديكور غُرفتها لتشْكل لوحةً خاصة، فلقد صمّمت بنفسها تفاصيل الغرفة، بجُدرانها وألوانها والسّتائر، والشراشف، والأثاث..

كانت ترتدي قميصَ نوم ٍأزرق قصير شفّاف، يُظهِر ملابسها الداخليّة البيضاء، جسدها أجملُ من عارضات الأزياء، منذ نعومة اظافرها وهي تُواظب على الذهاب إلى النادي، حتى أصبح جزءً من يومها. أشعّةُ الشّمس كانت تُلامس ساقيها البيضاوين على السّرير، كانت تضاعف جمال ساقيها، وتضيف ما يكفي لإغراق آلاف من الرجال في حبّها. شعرها الأسود الطويل مَرْخيٌّ على كتِفَيْها بشيءٍ من العفويّة أو الفوضى المُشتهاة، كأنّه يَتَشي من ملامسة كتفيها. ولهدان مُمْتَلِئان، من الشمس يأخذان حرّهما، الشَبَقُ في نواتيهما، يعكس أوج أنوثتها وطبيعة أحلامِها الليليّة، نافرين، جميلين، يناديان حبًا واحدًا، كحبات الكرز، لكن مُحرّمين على جميع الرجال.

وضعت سماعات الهاتف في أذنيها، وأخذت تسمع كاظم الساهر باهيئةٍ تَليق بُسُكْرِ وسُكْر حُسنها وصباحها:

" فلا تنعتيني بموت الشعور

ولا تحسبي أن قلبي تحجر

احبك فوق المحبة لكن..

دعيني أراك كما أتصور

www.ibtesama.com/vb

صباحك سكر.."

يوسف صباحك علقمٌ معي، أُريدك شمسَ صباحي..

أطفِئني، أرِني كيف سيُطفئ ماؤك ناري؟ هل ستخسَرُ أمامي؟ أالثقُ بكلِّ شيءٍ فيك؟ لكن لا اعرف كيف تكون لمتعةُ مائك؟ أتوق لأن أذيقَك لسعاتِ.. أتوق لتعميدِكَ، لتصبِحَ تابعي، أسيرًا للسعاتي، أذيقُك مرارة التمنع.

أتخيَّلُ احيانًا حين سأكون معك بمُفردنا، سيَصِل استبدادي لصَخَب الفضاء. نعم، أدرك أنّي سأكون معك في النهاية، أنا لا أخسَرُ، ويُسعدِني أن أعترف أمام نفسي لا غير، أنّك لي لُعبتي، ودُميتي.. كلُّ شيءٍ أنا وأنت لا، ممنوعٌ عليك أن تُزعجني، ويحقُّ لي ان أُزعجك.. ممنوعٌ عليك الحديث عن أيِّ أُنثى بوجودي أو بغيابي، ويحقُّ لي ان أقولَ ما شئتُ عن كاظم. يُمنع عليك البكاء، ولي حريَّة البكاء بسببٍ أو بدون سبب، وعليك إرضائي..

ممنوعٌ عليك أن تقولَ لا، ويحقُّ لي كيفما أشاء الرفض..

ممنوعٌ عليك الضرب، ويحقُّ لي تعذيبَك بكلِّ الوسائِد المُخمليَّة في البيت.

ممنوعٌ عليك الفلسفة الشرقيَّة، كأن تُريدُ أن تُفحمَني بفكرةٍ تُقيِّد حريَّتي "يا فيلسوف زمانك..!"

ممنوعٌ عليك فِعل أيِّ شيءٍ أنا أرفضهُ، أو أيِّ شيءٍ يُضايقني..

www.ibtesama.com/vb

ما اسودَ أيامك حين اقولُ لك توقّف عن شيءٍ ولا تتوقف، ساجعلك تتشرّد على سطح الكرة الأرضيَّة، وربما سيكون أسهل عليك ان تقدّم لجوءً إلى المريخ.

بينما انا، يحقُّ لي ان ازعجك في أيّ وقت، وأن اقول أيّ شيء، وان اضربك واوجعك..

وان اتفلسف بميتافيزقيَّة كيفما اشاء، وعليك أن توافق على كلّ شيء، حتى ولو لم تكُ مقتنعًا.

ليس لك صلاحيَّة أن توقفني عن الكلام، ولا ممارسة اللامبالاة حين اتكلّم.

حين أريدُ أن أقف، لوحدي أتخذ هذا القرار.

سازعجك جدًا إذا عاكست رغبتي في شيء، يا ويلاه لما سأفعلُ بك، سانتِفُ ريشك مثل الحمام.

و حتى وإن عاقبتك، لن يشفعَ لك الاعتذار رُغم أنّك ستستمرُّ بالاعتذار، لكن لن أتوقف عن عقابك حتى يُشفى غليلي..

كانت حالةُ مريم هذا الصباح، حالة حبٍّ، كالغريق الذي يتعلّق بقشةٍ، اسعدها أنّ تلك الرسالة لم تُنهِ حُلمها، بل زادت من حبّها ليوسف الضعف ضعفين..

اخذت طوال الليل تحلم به، حتّى في صباحها تفكرُّ به..

بردت قهوتها، تذوّقتها، ثم قامت من سريرها وأحضرت اللابتوب الخاص بها، وبدأت تتفقّد البريد، ثم شيئًا فشيئًا بدأت بالبحث عن أيّ

www.ibtesama.com/vb

تواجدٍ له على الإنترنت. تفحّصت الماسنجر، حيثُ لم يغيِّر النيك نيم منذ أكثرَ من أربعةِ أسابيع، تفقّدت حسابه على الفيس بوك، لم يحدِّث شيءٌ منذ فترةٍ طويلة، حتى في حساب التويتر، وكل مواقع التواصلِ الاجتماعي..

فتحت مدوّنتهُ، لا جديد منذ مدة، لا تعليق، لا سطر لا شيء..

كان بينهما صديقةٌ مشتركة على الفيس بوك، كانت متردِّدة جدًا في أن تتّصل بها وتسألَها عن يوسف..

لكن في النهاية ارتأت أن تتّصل عليها، وأن تتحجّجَ بحاجة الجمعية له لتصميم موقعٍ إلكتروني، فقد كان يوسف قد عملَ فترةً في مكتبٍ للتصميم في منطقة الوحدة، قبل أن يفتتح مكتبهُ الخاص في الرمال الجنوبيّ..

اتّصلت عليها، وسألتها عن صحّتِها وعن دراستها وما إلى ذلك، ثم قالت:

– هل تعرفين كيف أصلُ إلى يوسف؟ أعتقد أن لدينا موعدًا معه في الجمعية، لقد رأيته في قائمة الأصدقاء المشتركة لديك..

– يوسف الشيخ زميلي في الكليّة؟

– نعم هو.

– يوسف متغيِّب عن الجامعة تقريبًا منذ فترة، ولم يحضرْ الامتحانات النصفيّة أيضًا، مختفٍ لا أعلم عنه شيئًا.

– هل تعلمين أين يمكن أن أجدهُ؟

www.ibtesama.com/vb

- في الواقع هو يسكن في المخيّم، لكن لا أعلم أين بالتفصيل، لكن.. لا شيء

- لكن ماذا؟

- لا أدري.. إذا كان يهمُّك أمره أو لا، لكن سمعت من أصدقائه أنه لم يعدْ للبيت منذ مدةٍ أيضًا.

تصنَّعت مريم البرود وأخفت لهفتها، وأجابت ببرود:

- غريب!

أجابت صديقته بسخريَّةٍ "ما غريب إلا الشيطان"، ثم مرَّ من امامها أحد أصدقائه المقرَّبين، فقالت لمريم انتظري.. صديقُه أحمد هنا، ساساله واعيد الاتّصال بك.

بقيَت مريم في حالة غليانٍ تام، تقاتِل الهواء، شعرت أنّ جدران الغرفة تكادُ تُطبقُ عليها، وأن أكسجين الكوكب لا يكفي لها، تناولت حبّة مهدئ.

رنّ جوّالها مرَّةً أخرى، فأجابت وقالت: خير، طمّنيني ماذا قال لك؟

ردت صديقتها: هو لم يَره منذ أسابيع، وغير مُتواجد في البيت، وهاتفه مُغلق، لا يعلم شيئًا. لكنّه أبدى ريبته في أن يكون معتقلًا في السّجن للتحقيق معه بسبب انتماء أخيه التنظيميّ، فالسُّلطات تبحث عن اخيه منذُ ما يقاربُ الشهرين.

www.ibtesama.com/vb

أنهت مريم المكالمة، ثم ارتدت ملابسها بسرعة غاضبة، وخرجت مسرعةً بسيارتها كرائد سباق، غير آبهةٍ بنظرات المتعجبين حولها.

***

بدأت الأجواء تأخذ منحنيات غير متوقّعة، صعود أسهم تنظيمات أخرى، والمنافسة تجلّت في أكبر فصيلين فلسطينيَّين. ساءت ظروف تنظيم مصطفى، حيث تحفّظت بعض التنظيمات الأخرى عن الدخول إلى الانتخابات، بسبب رفض اعترافهم باتفاق أوسلو. وسيدخل الانتخابات إحدى كبرى الفصائل في فلسطين، والذي سيكون منافسًا قويًا للحزب الحاكم الحاليّ، وربما سيتفوّق عليه بسبب أيديولوجيّة المقاومة الذي يتبناها، ورصيده من العمليّات في العمقِ الإسرائيلي، فقد أوضح أحد عناصر المكتب السياسيّ للفصيل أنّ الحركة ستعتمد خطابًا سياسيًا جديدًا بعد دخول المجلس التشريعيّ، دون الحاجة فيه إلى التفاوض مع إسرائيل، وأكّد أيضًا على تمسُّك الحركة بسلاح المقاومة كخيارٍ إستراتيجيّ في سياق العمل السياسيّ، رغم عدم وضوح هذه القضيّة الشائكة، لكن تمّ سردُها بطريقةٍ تخدمُ الحركة.

بدأت الانتخابات مرحلةً جديدةً من عمليّات المساوَمة على استحواذ التنظيمات الكبيرة للفصائل الصغيرة.. العروضُ جيِّدة، والأجهزةُ الأمنيّة في مرحلة غربلة، الداعمون والمموّلون للتنظيمات يتزايدون.. تجارٌ.. أطرافٌ غير معروفةٍ.. وحتى بُلدان وحُكومات. سيتمُّ استخدام التنظيمات الصغيرة في نَخرِ السُّمعة الانتخابيَّة للتنظيمات الكبيرة، شيءٌ يشبه الحرب بالوكالة..

www.ibtesama.com/vb

من يَخشون المراهنةَ على الحالة السِّياسيَّة من أصحاب رؤوس الأموال يستعدون للرحيل، وأولئك الذين فاحت رائحةُ سُمعتهم السيئة يرسمون خُطة الخروج الآمن..

قوى إقليميَّة وعالميَّة مُستاءةٌ من عمل الأجهزة الأمنيَّة، التي أنفقت عليها الكثير من الأموال، بسبب فَشَلِهم في التصدي للحركات الداخليَّة الأخرى، وضَعفِ شعبيَّتِهم، في مقابل ارتفاع شعبيَّة فصائل اخرى مموّلة من أطراف أخرى..

وكالات الأنباء في فلسطين كثيرة، والتي غالبًا ما يملُكُها أحدُ المسؤولين. تبدأ رحلتها في استغلال أيّ خبرٍ لصالح المُرشّح الانتخابيِّ او التنظيم المقرَّب من الوكالة.. الآن، نشرُ الإشاعات وارد، فبرَكَةُ الأخبار، التلاعبُ بالعناوين، الكلُّ ينتهج سياسة: "كلّما كرَّرت الكذب أكثر كلّما كان أقرب للتصديق"..

وعادةً ما يصدِّق الناسُ تلك الأخبار التي تتوافق مع التمائهم، والتي وإن كانت كاذبة، فهي بالنسبة له حقيقةٌ، إذا ما تجلَّت بالتوافق مع توجُّههم السياسيِّ..

كثيرون هم المرشحون، ولكنَّهم مع مرور الوقت يتساقطون واحدًا تلوَ الآخر وهم يصعدون إلى رأس هرم السلطة!. الحسابات تغيَّرت بالنسبة لمصطفى الآن، فالمساومة على تنظيمه لا محالة هو الحلُّ الأفضل للتنظيم. على الأقل سيضمن وعودًا بوجودهم في السلطة دون عناء كبير، خصوصًا وأنَّ حظَّهم بدا مستحيلا بعد توافق تنظيمات أخرى على الدخول للانتخابات التي رفضتها في البداية..

***

www.ibtesama.com/vb

وَصلَت مريم للمقر، توجَّهت مباشرةً لعمِّها، كانت حئرَة وقلقة في نفس الوقت، استَوقَفَها رأفت في الممر أثناء توجُّهها للمكتب..

وقفت مريم لرأفت، الذي بادر بإلقاء التحيَّة عليها:

- كيف حالُكِ؟

- الحمد لله، هل عمِّي متواجدٌ في مكتبه؟

- نعم، لكنَّه في اجتماعٍ الآن مع سكرتير مدير الجهاز. ولا أظنُّ أنَّه من الممكن مقاطعته.

- أوكِ، لا باس ساعود أدراجي..

- يبدو عليك القلق، ماذا حصل لكِ؟

تردَّدت قليلًا ثم أجابت قائلة: لا شيء

- لا أظنُّ ذلك، تعالي معي إلى المكتب..

ذهبت معه وهي تعيش حالةً من التهوُّر نوعًا ما، لا يحكم تصرُفَاتها عقل. جلست على الكرسيِّ، وجلس أيضا رأفت، وطلب منها أن تخبرَه ما الأمر، فلا يوجد تكليف بين مريم ورأفت، فهي بعمر بناتِه، وهو -بعيدًا عن ظروف العمل- صديقٌ للعائلة ورفيق الرحلات لها..

استجمعت مريم قِواها وسألته لا شعوريًا:

- أنت تعرف يوسف؟، ابن أبي مصطفى الشيخ، الذي قام ببناء بيتنا الجديد في تلِّ الهوى، والذي كان جارنا سابقًا، حين كنا نقطن في المخيَّم..

www.ibtesama.com/vb

- نعم أعرفُهُ، لكن هل يُعقَل هو سبب انزعاجك؟

- لا ليس بالضبط..

بقيت صامتة للحظات، إلى أن كسر رأفت اللّحظات مبادرًا بسؤالها:

- هل أزعجك بشيءٍ؟ هل تعرَّض لجمعيَّتِك بسوء أو ما شابه؟

كان هذا بالطبع التساؤل الذي قد يطرَحُه رَجُل أمنٍ، فلا مساحة للحبّ في الأجهزة الأمنيَّة، مُجرَّدون من كل ذلك..

أومأت له بيديها مشيرة له بالنفي، ثم سألته بشكلٍ مباشر:

- هل هو مَقبوضٌ عليه عِندكم في الجهاز؟

ظهرت على وجه رأفت عَتَبَاتُ صَدمةٍ، لكنّه استملكها كي لا تلاحظها مريم، فليس من الجيِّد أن يُحدِّثها عن أيِّ تفاصيلٍ دون علمٍ منها، الذي هو في الأصل من اعتقلهُ!

توجَّه نظرُه صوب عينيها وصمت لأقلّ من دقيقة ثم قال:

- أليس أمر يوسف قد انتهى؟ وأنتِ قلتِ لي حين كنّا نجلس في المطعم وحدنا، قلت بمحضِ لسانك منذ ثلاث سنوات بالضبط إنّك لا تحملين تجاه يوسف أيَّ مشاعر غير الأخوّة والاحترام، وأنّ لا حبَّ في الموضوع؟ وها أنت الآن كلُّ ملامح وجهك ومشاعر خوفك تفضح سِرَّك، وأنا أعرف أنّك تجتهدين كثيرًا في هذه اللّحظة لإخفاء تلك المشاعر..

www.ibtesama.com/vb

حاولت أن تحزُم مريم جلستها، وأن تكون أقوى بشخصيّتها أمامه، وحاولت مُقاطَعَته قائلةً:

— عفواً! ليس لك الحقُّ أن تكلّمني بهذه الطريقة وأنا سألت عنه لأن صديقته كلّفتني بذلك..

قال لها:

— أشكُّ في ذلك يا مريم، أنا أعرفك جيدًا، أنا أكثر من يعرفك، كان عمُّك حين يعجز عن التعامل معك يرسلني إليك لأعلم منك ما دار من حوار بينَكما، وكنت أسعدُ دائمًا بسماعِك وثقتك التّامة بي..لكن هل تعرفين خطورة ما تتحدّثين به الآن؟

بدايةً يوسف ليس معتقلٌ لدينا، ولا في أيِّ فرعٍ آخر من فروعنا، وسأتأكّدُ من ذلك الآن.

استدار نحو الكمبيوتر، وحركت هي نظرها تُجاه الشّاشة..

— سأبحث عنه في كلِّ السّجلات الأمنيّة

ثم ما إن وجد ملفّه قال لها:

— كلُّ ما في ملفّه أنّه أُعتُقِل مرةً إثر اختراقه لأحد المواقع الإلكترونية الخاصة بجهاز السّلطة، لكن تمَّ الإفراج عنه، بعد أن توسَّط عمُّك لذلك، ولعدم بلوغه سن الـ ١٨ آنذاك..لا توجد أيُّ تقاريرٍ أمنيَّة عنه باستثناء أنه أخٌ لمصطفى، الذي هو بالأساس مطلوبٌ أمنيًا لقضايا داخليَّة كما تعرفين منذ سنوات .

www.ibtesama.com/vb

كلُّ ما أُريد قوله لك الآن، سؤالك عن يوسف ليس عبثًا. واضحٌ اللك معواصلةً معه منذ فترةٍ طويلة، وهذا ما جعلك تشعرين باختفائه وليست صديقته، فلا أعتقد أنّك قد تسدين خدمةً كهذة لصديقة..ليست الأمور بهذه السّذاجة، وأنت حين تكذبين عليَّ دائمًا سحاشين النظر إلي. ومن خصال شخصيّتك، التي أعرفها جيّدًا، أنّك لو كنتِ على حق، لا تتركي لي مجالًا كي أقول لكِ كلَّ هذا.

اريد أن أُشير إلى خطورة علاقتك بيوسف من الناحية الأمنيَّة، ليس لسوء اخلاق يوسف، فأنا أعرفه جيدًا، فهو صديق أخي كما تعرفين.. ولكن لأن مصطفى مطلوبٌ أمنيًا منذ سنوات لأجهزة السّلطة للتحقيق في قضايا تخصُّ الأمن الوطني، وقضايا تتعلّق بتهريب السلاح، ناهيكِ عن أنّه قد يكون مطلوبًا لإسرائيل أيضًا.

ويجب أن تراعي الفروقات الاجتماعيَّة بينكما، والأسباب التي حدثتك عنها سابقًا وتأقلمتِ معها عبر السنين.

.

أنت من عائلة مدنية، وفي عُرفِ عائلتك لا يُسمح لكِ بالزّواج من شخصٍ لاجئ ذي اصولٍ فلاحيّة.. وأعتقد أن هذا قد ذكرته لي قبل ثلاث سنوات لتنفي علاقتك مع يوسف، بعد تلك الرسائل الغراميّة التي وجدتها زوجة عمّك في غرفتك وأعطتها لعمّك..

المشكلة ليست في يوسف، بل في كلّ ما يحيط بظروف يوسف وما يحيط بظروفك. الظروفُ كفيلةٌ بأن تغيّري مجرى كلّ شيء..

www.ibtesama.com/vb

لا أريد أن أكرِّر ما اتفقنا عليه منذ ثلاث سنوات، سأكتفي بتذكيرك بأنَّ سؤالك عن يوسف كفيل بأن يصيب عمَّك بالجنون لحساسيَّة علاقتهِ مع أخيه..

***

شعرت مريم بشيءٍ من الرَّهبة، رافت يتمتَّع بأسلوب مقنِّع في الحديث، يكاد يكون الوحيد الذي يستطيع أن يجعل عقلية مريم تلين، حتى أنّها حين ذكر بأنَّ عمَّها سيُصاب بالجنون لو عرف بسؤالها عن يوسف، قالت له:

– لكنك لن تقولَ لعمِّي إنِّي كنت هنا لأسأل عنه..

ردَّ عليها قائلًا:

– أعدُك بذلك، وسنتحدَّث في هذا الموضوع لاحقًا باستفاضة، فليس هناك الكثير من الوقت أمامي للحديث عن هذا الموضوع. عودي للبيت وسأكلِّمُك لاحقًا..

سلَّمت مريم على رأفت بيد فيها شيءٌ من الانكسار، ثم تحرَّكت للخروج، وتوقَّفت عند الباب للحظة كأنَّها تريد أن تسأل عن شيءٍ مرةً أُخرى. وما إن استدارت إلى رأفت، حتى كانت نظرته صوب عينيها كفيلة بأن تُلغي فكرة السؤال، لحرجها منه..

خرجت مريم من المكتب، ثم استدارت إلى الممرِّ الخلفيِّ المُختصر، الذي يُوصلها عبر سلَّم الطوارئ إلى مخرج الكراج، حيث وضعت سيارتها هناك..

www.ibtesama.com/vb

خرجت من المبنى، ثم قطعت الطريق من خلال الحديقةِ، حيث لم يكن هُناك طريقةٌ للمرور إلاّ من هذا الاتجاه. وأثناء هروَلتِها على تراب الحديقة، أفزعها صوت قطةٍ سوداء، فتجمَّدت في مكانها، ثم صارت تُبَسبِسُ للقطة، فتارةً تقول لها "روحي ولك روحي"، وتارة تبسبس وتشير لها بيدها للابتعاد..

ثم فجأة، رمى أحدهم حجرًا على القطة، فهربت القطة سريعًا. رفعت عينيها بالاتجاه الذي رُمي مِنه الحجر، فرأت شخصًا خلف الشبّاك الحديديِّ، الذي يوضع على غرف الاحتجاز..

وما إن جاءت عينيها بعينيه من بعيد، حتى شعرت بأنّها تعرِفُه! تقدّمت باتجاهه خطوتين، ثم قالت وهي مذهولة:

يوسف!..

يتشكّلُ عقل مصطفى من قاعدةٍ مذهبيَّة ومنهاجٍ فكري، مثله مثل الآخرين، ولكن يختلف في تفسير وتأويل الأحداث. رُغم ذكائه وأسلوبه، إلاّ أنّه تربّى على عقليةٍ متعصبةٍ جدًا، تَملأُ قلبَه بكراهيَّةِ كلِّ ما هو ضِدَّهُ، يتحوّل قلبه شيئًا فشيئًا إلى حالةٍ من النرجسيَّة، يشعر بأنّه الوحيد على حق، وهذا الشُّعور يمنحهُ مَلَكَةَ المساومَة على أيِّ قضيَّة، بناءً على منهجيَّةٍ عقليَّةٍ في تقدير الأساطير المُلصقة بفكرة ما، فيسعى بشكلٍ أو بآخر لتحقيق أهدافه بطريقةٍ ميكافيليَّة، دون أن يشعر.

ويمكن أن يمنح نفسه سُلطة ممارسة فعلٍ، ويحرِّمَهُ على غيره، ويؤوِّل هذا على الأسباب، فتراه يُهاجم أكبر عدو للمجتمع المحيط

www.ibtesama.com/vb

به، فيَنتُجُ عن ذلك تسليط الأضواء عليه، فتحيطُه بالاهتمام، وتبدأ بخلق سُلطته الخاصة، ثمّ سُرعان ما يزداد تأثيره بسبب مهاجمة الأطراف المعارضة له، إذ تخلقُ لديه حالةً من العناد، وتبدأ من هنا معاناته في الوصول للسلطة المطلقة، ومعاناة الشعب في التّعامل مع أشباه الفراعين ..

داخل أحد المستودعات، جلس مصطفى على الأرض، واتّكَأ بظهره على الحائط. كان معه صديقُهُ أبو صهيب، أخو المغدور به من قبل جهاز العقيد نبيل. وخلال دقائق، بدأت تتوافد عناصرٌ من التنظيم مدجّجين بأسلحتهم إلى المستودع، الذي يملكه أحد أفراد التنظيم، والذي يعمل في تجارة القمح والزيت.

وقد كان المستودع يتسع لأكثر من ١٠٠ فرد.. و خلال نصف ساعة اكتمل الحضور تقريبًا، بما يقارب سبعين فردًا من اللجان العسكريّة والسياسيّة للتنظيم..

كان مصطفى يتكلّم بسريّة مع أبي صهيب، إلى أن جاء أحدُ الأفراد ونصب المايكرفون أمامه، فشرب كاسًا من الماء، وأمسك المايكرفون، ووقف على ارتفاع وكأنه منبر. في هذه الأثناء، توجّهت كلُّ الأنظار والانتباه إليه، فبدأ يخطب بهم مُستهلًا حديثه بالاستغفار والحمد والتهليل، مستشهدًا ببعضِ الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، ثم أردف قائلًا:

- أيها الأحباب، قبل أيامٍ قلائل فاجأنا بعضٌ من سلّم رقَبَتَهُ للشيطان، وجعل مصلحة العلمانيَّةَ والسُّلطة إلهًا يعبد من دون الله عز

www.ibtesama.com/vb

رحل، فاجأنا مفاجأةً، وقد أقدم على هذه المفاجأة بعد أن أصابَه الهلعُ من الأعداد الكبيرة من المجاهدين المتوافدين إلى التنظيم، فقرَّر ان يقفَ ضدَّ هذا التدفق الكبير، فسعى إلى محاربة المجاهدين واعتقالهم، وشَرَعَ في إجراءات التضيّيق على نشاطات التّنظيم الإعلاميّة، والتي تدلّل على الخسّة والحقارة والتصرُّفات القذرة والرخيصة، وعدم معرفته بعواقبِ تلك الأمور.. ولكن سبحان الله العظيم.

- قلت سبحان الله، سبحان الله!.. هل هنالك من يفكِّر في إبطال مسيرةَ النّضال والعطاء ونشر الإسلام الصحيح على سنَّةِ الله ورسوله؟ أولئك الذين باعوا القضيَّة في أحضان أوسلو والمؤتمرات البائسة والمفاوضات؟ ممّا يخافون؟ ممّا يخشون؟ من امريكا!! من اسرائيل!! من بريطانيا! من الاتحاد الأوروبيّ! فالله أحقُّ أن تخشوه وتخافوه... فالله أحقُّ أن تخشوه وتخافوه...فالله أحقُّ أن تخشوه...

فلماذا جعلتم الله عزَّ وجلَّ أهون الناظرين إليكم؟ أما سمعتم قول الله عزَّ وجلَّ (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدودًا)؟ فلماذا أراكم ترغبون في كلِّ شيءٍ الا في أخذ الدين بقوَّة؟.. أراكم لا ترضون؟.

وهنا أريد أن أشير.. لقد سجَّلت السُلطة العديد من التجاوزات والاعتداءات بحقِّ التنظيم وشبابه، فلقد قامت بمداهمة أكثر من ٧ مقراتٍ للتنظيم على مدار الثلاث شهور الماضية، واعتقال أكثر من ٢٠ فردًا من خيرة أبناء التنظيم، وقد قامت بتجميد أموال التنظيم

www.ibtesama.com/vb

والتضيّق عليهم في البنوك، وقد استهدفت الكثير من أبناء التنظيم الثقاة في مناصبهم، فقد عزلت مدرسين من عملهم، وسحبت تراخيص من مصالحهم.. والكثيرَ من تلك التجاوزات التي لا يطيق القلب أكثر في السكوت عليها..

وأخيرًا، لقد قامت الأجهزة الأمنيّة في الأيام الآنفة بقتل شبان من خيرة شبابنا، الذين كانوا يُجهِّزُون لتنفيذ عمليات استشهادية، بل ولم تكتف بقتلهم، بل رمت بجثثهم في المستقنعات القذرة. ومن هنا، أود أن أقول: لقد بلغ السيل الزبى، وعليه: نحن لم نبدأ بالاعتداء على أيٍّ من عناصرهم، فهم أخواننا. ولكنّهم هم من بغوا علينا، والأمر وصل إلى أنّهم استحلوا دماءَنا وأموالنا ويتّموا أطفالنا، وسيتمُّ معامَلتَهم على قاعدة المعامَلة، بالمثل استنادًا إلى قول الله عز وجل: "ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمَّ بُغِيَ عليه لينصرنَّه الله إن الله لعفوٌّ غفور."

ولذلك، اسمعوها مدويَّة، من استحلَّ دماءنا سنستحلُّ دمه، ومن استحلَّ أموالنا سنستحلُّ ماله، ومن يتّم أطفالنا، سنيتّم أطفاله، وعند الله عز وجل تلتقي الخصوم. فمن قُتِلَ دون دمِه فهو شهيد، ومن قُتل دون مالِه فهو شهيد، ومن قُتل دون عِرضِه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينِه فهو شهيد.

وبناءً على التوافق بين القيادة السياسيَّة والعسكريَّة للتنظيم، نصدر البيان الأول، نقول وبالله التوفيق بعد أن توكلنا على الله عزَّ وجلَّ وأخذنا بأسباب العزِّ والتمكين، فبإذن الله ومشيئتِهِ نعلن أن:

١- «كلُّ ابن آدم خطاء، وخير الخطّائين التوّابون» ونعتبر مشاركتنا في انتخاباتٍ خارجةٍ من رحمِ أوسلو خطأً، ونعتذِرُ عن

www.ibtesama.com/vb

المشاركة بها، لذلك قرَّرنا بتوفيقِ الله الانسحاب من الانتخابات، ودعم التنظيم الأقرب لدين الله والأوفر حظًا ضدّ أولئك العلمانين، كي لا تتشتت ولا تتفتت أصوات المسلمين في الانتخابات القادمة ويستعمرُ الخارجين في السلطة..

٢- سنعيدُ سُبُلَ الجهاد ضدَّ الأعداء، وضدَّ أعداء الجهاد، ونعيد طعم الحياة وكرامتها، والتي يُعزُّ فيها المؤمنون ويُذلُّ فيها الكافرون. فأجهزة السلطة تعمل ضدنا وضد جهادنا، لذلك أعينوني بقوّتكم لأن نجعل بيننا وبينهم ردمًا..

٣- وأما بالنسبة للعقيد نبيل، فلقد تركناه في بحبوحةٍ من أمره، إلى أن تجاوز الخطَّ الأحمر. وعليه، فقد توافق المجلس العسكريّ والسياسيّ على قتلِه، لارتباط اسمه بتعذيب واعتقال عدد من المجاهدين، وأخيرًا قَتلَهُ خيرةَ شبابنا بأبشع وسائل التعذيب..

وفي النهاية، لا يسعني إلاّ أن أقول: اللهم انصرنا على من عادانا ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا وصلّ اللّهم على محمد عدد الذاكرين وغفلة الغافلين..

ثم سألهم أن يصطفّوا للصلاة، وصلى بهم بعد هذه الخطبة، كأنّه أدخلهم في دينٍ جديد!.. لقد قال يومًا محمود درويش عن الخطابة:

"الخطابة هي الكفاءة العالية في رفع الكذب إلى مرتبة الطرب، وفي الخطابة يكون الصدق ذلّةَ لسان"

لكنَّ مصطفى لم تسقطْ منه ذلّةُ اللسان!

***

www.ibtesama.com/vb

بعد أن رأت مريم يوسف محتجزًا، وتأكّدت من أنّ عمّها من قام بذلك، كان لديها شعورٌ داخليٌّ بمعركةٍ تُطبق عليها. حدةُ التفكير، التوتر، الضغط، الفرح، الخوف، قلّةُ النوم..كلُّ ذلك بدأ منذ رأته مُحتجزًا.

لكنّها كانت تشعر بأن جيش الفرح يتوافد إلى داخلها، وتتهاوى جيوش التوتّر والخوف أمامه، بل تغيّرت أيديولوجيّات الكثير من المشاعر الأُخرى، وانضمّت لحزب الفرح في داخلها، كأن الحبُّ مثلَ الشمس ماضٍ متجدد، ماضٍ إذا ما جاءَه المخاض، سيُرزَقُ بفرح..

لقد كتبت عن هذا اليوم في مُذكّراتها ليلًا، حيث تميل كلّ ليلةٍ لأن تعترف بأفراحها وأحزانها، كأنّها جلسة اعترافٍ ترنو بها إلى تطهير آثامها. كتبت في تلك الليلة عن يوسف:

لا أعرف كيف أبدأ كتابة هذه المذكّرة، التي ستكون الأهمّ في حياتي.. تحبسُكَ الجدران، وتَحبسُني دموعي.

إنّ الحبَّ انفعال، انفعالٌ أثرى فرضيّة المصادفة، وأوقعني في شباكك دون تعمّد -محض قدرٍ ليس أقلّ وليس من ذلك أكثر- مع خالص يقيني التام بالقدر، وإيمانيّ المعدوم بوجود الصُدف، بتُّ اشعر أنّي أحمل من الحبِّ لك ما يستَبيح حُرمة الحبِّ بحدِّ ذاته، نظرًا لظروف هذا الحبّ الذي أتعجّب من مدى تكيُّفي معه، وكأنّه اصبح كَتُراثٍ لكَ فيه حصّةُ الأسد، لأسبابٍ روحيّةٍ اجهلُها.

www.ibtesama.com/vb

كنتُ ألثم الحبَّ بكوفيّة التجاهُل، لأجِدَه يُبصِرَني بعينيه التي كتب الله عليها الحب. كان حبُّك واضحًا كعين الشمس، لم أكُ بحاجةٍ لدليلٍ أو حتى تلميحٍ.. كانت عيناك تقوم بواجب التصريح دائمًا.

ادركت أخيرًا أنّي قد كابرت كثيرًا حدَّ السذاجة. كنت أُحاول التخفي وراء ستائر الكبرياء، مع يقيني التام بأنّ تصرُّفاتي هذه تُسبِبُ لك بضيقٍ وضجر، لكنّي لا أجد إجابةً تُصيب سهم الإقناع بخصوص هذه السياسة التي يمارِسُها العشّاق، وبالأخصّ العاشقات، كأنّ الكبرياء فرضٌ من فروض الحبِّ عند الإناث في البدايات. أودُّ أن أعترف لك بمدى حِقدِي على كلّ لحظات التّكبُر التي كنتُ أحرم نفسي فيها منك طوعًا.

قبلتُ لنفسي أن أكون لصّةً من أجلك يا يوسف، نعم لقد كنت لصّة بأعلى درجات الاحتراف، وغفلَتُك عني هي الدليل. إنّك تجهل هاتِك اللحظات التي كنتُ أتأمَّلُك فيها بعيون متخفيّة، خِشيَة ألّا تلحظني أبدًا، حرصًا مني على قدسيّة كبريائي. لقد كنت أعلم أنّ هناك حبًّا ينتظرُني في قلب سيادتك، وقد أدركت مؤخرًا أنّ وجودك في حياتي لم يكُ محضَ صدفة وحسب، إنّه القدر يا حبيبي، إنّه حُكم الربّ الأعظم.

كنت أشعر بنيران الشوق التي تلتهم جوفَك، كلّما أخطأت سهامي لتُصيبَك بقصدٍ منك. ولا أُنكر أنّي كنت ألتمسُ رغبتك بالاعتراف، في كلّ مرةٍ كُنت تهمُّ بها محاولًا الاقتراب، لتُطلِقَ لجرأَتِك العنان وتضغط الزّناد لتُصيب قلبي بصراحتك، لكنّني لم أكن قد

www.ibtesama.com/vb

أقلعت عن التهرُّب منك بعد، أنا من جعلت منكَ وليمةً للتردُّد في الوقت الذي كنتَ فيهِ قد أدمنتني حقًا يا يوسف.

أشعر وكأني شبيهة جرسٍ مُعلّقٍ، يترنَّح بين السعادة والحُزن، لا يُوقِفه إلّا الحب. هذا الحبُّ الذي أتعبته وهو يناجيك بصمته رغمًا عني، كان عنيفًا شوقي لك، كنت أمامه كطفلٍ يقاوم دبَّابة، يَقذِفُني دون رحمة ولم يراعِ فرق قوَّته وضعفي. لم أكن مطيعةً لأوامر قلبي، الذي كان يقاوم حبَّك متمنعًا عن اللُجوء إليك.

كنتُ أشعر بعينيك المستنجدةِ كلّما نَظرْتَ إلى السماء، وكأنَّك تحاول دغدغة القدر ليبتَسِم ويكتُبُني لك. كنتَ تؤمن أنَّ القدر مصدره السماء، لم تكن كثيرَ التفاؤل بقدر ما كنتَ متشائمًا. الإنسان يميل إلى الحزن بطبيعته، حاول أن تستعيدَ واحدةً من الذكريات لديك، ستجد نفسَك تتذكر ما يُحزنك تلقائيًّا.

كوني ابنة المدينة، كانت هذه مسألةً تُثير قلقك إلى حدٍ يجعلك تتمنى أن تكون مدنيًا، بالرغم من عشقك لأصولك القرويَّة بشكل مُلفِت. كانت هذه أكثر الأمور التي تبثُّ خوفك من مستقبلٍ كنت قد هندستَهُ لنا بأدقّ التفاصيل في خيالك، المفضوح من بريق عينيك الأخَّاذ. كنتَ تجيد مهارة التفكير بالمستقبل أكثر منّي. ربّما هذا ما كان يجعلُني ابدو قويَّةً بحجم السماء أمام حبِّكَ، الذي يترعرع في قلبك كَـــــلطيمٍ، وفي قلبي اليتيم.

أحيانًا كنت أشعر بأنَّ الحبُّ جاهلٌ أميٌّ، لا يفقه شيئًا، تمامًا كالمرض لا يكترث لمن يُصيب، يغضُّ بصرَهُ عن كل التفاصيل، العمر،

www.ibtesama.com/vb

اللون، الأصل والفصل، لا يجيد إلا أن يصهب فقط. كنت أشعر بوجسيَّةٍ اضطراريَّةٍ أمارسها عليك، بالرغم من مدى التّجرُّد المرسوم في خريطة ملامحك الفتّانة.

كنتُ ولا زلتُ أشتاق لك بـــقدر شوق العاشقين وأكثر، إلى حدِّ الجنون والفقدان. تمامًا كما هو عشق الثوريين للوطن، نموت له وفيه ولا يموت فينا حتى وإن متنا. هذا الحبُّ مني ولي، كما هو الدمُ في اوردتي. دعني أكون قتيلةَ ثورةٍ، ثورةُ حبِّك لي وحدي، وكأنّما اقاوم بعدك لأنتهي من هذا الحرمان. هلا أستجديك فتخلّصُني من جحيم هذا البعد؟ خُذني إلى جنةٍ هيَ بين ذراعيك، كبِّلني لأعتنق اسمك ونصبحُ في تاريخ العشق ليلى وليلى وقيسان. أحبُّك إلى حد الإدمان .

لا أدري ما سرّ هذا الحبِّ الذي يُجبرني على التعاطف معك "انت"، لتتآمر نفسي على نفسها ضدّي! أيُعقل أن تكون قد تفوّقت عليّ، لتُصبح محتلًا كـــلّ اولويّاتي؟! إنّك تُرضي كبريائي بسلاسةٍ تذهلني، لم أكن هكذا يومًا، كيف أتساهل معك إلى هذا الحد!! أشعر وكأنّي عاطفيةٌ إلى حد السذاجة ...

انا لا أُنكر سُكناك فيّ، لكن هذا لا يعني بأنْ اكون في المنفى لكي تحلّ داخلي "أنت"!!

علّمني كيف أتوب عن التعلق بك. أشتاقك بعنف، وكأنما هذا الشوق يلتمس فرصة توحُّدي في غيابك عن ذهني، ليغتالني بك في ذاكرة تسكنُها بتفاصيلك، وتجوب فيها دون تعب.

www.ibtesama.com/vb

كنت كنجمٍ يشعُّ في سمائي يُنعشني تأمُّله، لكنّه ضاع في ليلةٍ غاب فيها القمر. تركتني كطفلةٍ في وسط غابةٍ، كمشهدٍ من فيلم رعب، لكنّه كان واقعيًا ذاك الشعور بالخوف، حينما لم أعدْ أراك، ولا يسعفني البحثُ عنك. ليس ذلك وحسب، بل ’نني لا أجرؤ حتى على السؤال عنك، لأنّك كنت سري الذي لطالما احتفظت به بين نفسي وأنا.

قد تتجسّد الغرابة بأحقّ أشكالها، عندما أسترجع اتخاذ الأمور لمنعطفٍ غير متوقع. كيف كانت الأمور بهذه العفوية الكاملة، التي لم أعهدها من قبل ولا في أحلامي، حينما فقدت سيطرتي وشعرت بنفاد الصبر، لأجد نفسي أقودُ سيّارتي مُتجهة إلى طريق السجن، باحثةً عنك دون وعي.

***

ثمة الكثير من لذة عمري أكلتها زهورُ النرجس، الكثير يا مريم من زهورٍ زرعتها أمام سوسن حبّي، وكنتِ ترعينها وتسقينها برفق وتداعبينها كفروٍ لقط..

لا أدري هل أنا ضحيّتُك؟

أمّا أنا، فضحيّة الحدود التي ارتسمت ولم أشأ القفز عنها. يُعاتِبني قلبي اليوم أكثر، حدّة تفكيري كانت مُتفقةً سرًا مع كبريائك، كانت تقتل كل ذكرياتي الجميلة معك، وتُبعِدُني، ولم أشأ يومًا أن أبعد..

في حبّك، لم أعرفْ البكاء على الأطلالِ، كانت كلما ضمرتني الأوجاع، أزاحها جسدي بضحكةِ الأفواه.. وكنت أحلُف بحبِّك لي سرّي، بيني وبين نفسي، كي أُقدّس وعودي وأيْمَاني أمام ذاتي..

www.ibtesama.com/vb

أتعرفين كم شئتُ أن أقولَ أحبُّك، وعدت خائب الرجا، لمحض إيماءةٍ منك تقول لي ليس الآن..

وها أنا الآن أحبك، بعذوبتك، وطفولتك، وبكل أوجاع الحياة..

فحين أحبُّك أقولُها، تتبسم شفتاي..

يا قدري، يا منفاي..

محاطٌ أنا بجدرانٍ ثكالى، بتهمةٍ مشبوهةٍ، لا أدري من أيِّ تكوينٍ هبطت..

يغذّي حبُّك في أحشائي مستحيلٌ ماكرٌ، تحالف مع الأوجاع ليزيدَ من حضور آلامك معي..

إلهي! لماذا أنا مُتشرِّدٌ بين ألف بينٍ وبين؟.. هل صِرت ابن شهيدٍ كي يُعاتبَني الناس على أيِّ خطأ، وكأنّي نبيٌّ أو صحابي، وما لغيري من أخطاء لا يحقُّ لي، لأني ببساطة ابن لشهيد، ولم أرغب يومًا أن أكون كذلك؟! هكذا القدر شاء، والحمد لله على كل قضاء..

صار أيضًا ممنوعٌ عليَّ أن أحبَّ، لسذاجة الموروث التقليدي للعادات، أسوة بالمثل السخيف "على قد لحافك مد رجليك"..

إلهي! لماذا هذا حالي؟

لماذا أنا هنا؟ لا شأن لي بكلِّ المهاترات السياسية بين أخي ونبيل. لا شأن لي بقضاياهم، لا شأن لي بالتفاصيل، فأنا أريد أن أحبَّ، أريد أن أعيش، أريد أن أتنفس كل صباحٍ مريم، ولا غير صباحها أريد..

www.ibtesama.com/vb

أريدها بمكرٍ، بطيبةٍ، بأيِّ شيءٍ، فالغاية تبرِّر الوسيلة، إذا ما كانت غايتي الحبّ، حتى ولو كان الحبُّ مستحيل!

أضيع أنا بألف ثقافةٍ وألفُ صراعٍ وألفُ قضيَّةٍ، شئتُ أن أنظر بعينيَّ إلى أعلى.. قلتِ أحبُّ الموسيقي وتعلّمتُها، وفي البيت، اخي يحرِّمُها بكافة أنواع الترهيب والترغيب.

وأنا، وأنا كل يوم يهاجمني الليل، ويكرُّ فرّا من عينيَّ النوم، ليتركَني أواجه من الحبِّ الحرمان، ومن الحريَّة الخوف، ومن الأمل الاكتئاب، ومن كل شيءٍ ضِدّه. وما أن يتعبَّ الليل ويغيب، حتى أموت على قلمٍ أنشر به أوجاعي، وأنشر به أحلامي، وتمزّقها بعد وهلةٍ يداي..

وأنا اليتيم، اليتيم في حبّك مريم، تعلّمت كلَّ ما لا أنتمي إليه، كي أنتمي إليك.. كي أكون بقربك. لم أعرف يومًا كيف أصفُ الحروف والكلمات لأنثر معانٍ تحوم حولك. لم أعرف الفرق بين البيانو والأورج إلا لكي أصبح قريبًا من رؤياك، ومولعًا بما أنت مولعةٌ به. حفظت نوتات فيروز وسيد درويش وعبد الوهاب وياني وعُمر خيرت وجوليا بطرس وماجدة الرومي، وكل من تُغرمين بهم من عمالقة، لأجلك.. أقسم أنّي تعلّمت كل هذا لأجلك..

آه لو تعتبري كل هذا مهرك!

كنت اتلصّص يوميًا على حساباتك، وأعرف ما تسمعين، وكل الأشياء التي بها تُعجبين. إذا احتجتِ إلى أغنيَّةٍ في الليل، اتجسَّس على حسابك لأرى اسم آخرِ أغنية كنت تسمعينها واسمعها عنى أثر ذلك،

www.ibtesama.com/vb

ولا أتوقف عن سماعها، أدمنها حتى يملَّ صوتي مني، من تكرار ترديدها يومًا فيوم..

ها أنتِ اليوم، تعترفين لي بحبِّك، وأنا عاجزٌ عن احتضانك، أفتك من أضلعي التصاقًا بأضلعك. اليوم، حين قُلتِها ويداي تلمس يديكِ، شعرت بقلبك ينبض في عروقي، همسةِ البرد والخجل التي انتابتك فأصابتني، وبضحكة قلبك وخوفه..

كان لقاؤك حيلةً من القدر، أولُ حيلةٍ ليست ضدِّي، صدفةٌ كان لقاؤنا، وما أجملها من صدفة. أتذكرين ما قلتِه يومًا لي عن الصدفة في المسرح؟ أول لقاء حُرٍّ بيننا، حين تحايلت بازدواجيَّة المفاهيم التي تؤمنين: الصدفة هي تلك الابتسامة التي يرسمها ذلك الفنان المتمرِّس، الذي يرسله القدر لينثُرَ رذاذ الماء على داخلك المحترق!

احفظُ كلماتك تلك عن ظهر قلب، وكأن هذهِ الصدفة تختزل الحبَّ المكبوت فيَّ منذ سنين، منذ سنين يا عمري، بل منذ خُلِقْت..

أنا آسف يا حبيبتي، لا أستطيع اليوم أن أحتفل بِحبِّك، سأحتفل به بذكراك وسموِّ قلبي أو قلبك لا فرق، لا حاجة للياء ولا للكاف..

معجزةٌ لقائي معك، كان بلا مقدمات، بلا تفسيرات، وكأنَّ كلَّ شيء أصبح واضحًا أمامنا، وكل الخيوط تتفكَّك، وكلُّ سدٍ كهلٍ نفد..

كنتِ قويَّة وجميلة، لم تحتاجي لأن تسأليني عن الأسباب، ولا أن تشرحيها.. فهمتُ كلَّ شيءٍ من عينيك، وبغفوةِ رمشكِ الأوَّل مسحتِ كلَّ ألمٍ، وأصبْتِ وحدَتي برعبٍ ففرَّت منّي..

www.ibtesama.com/vb

كيف تكونين دائمًا بهذه العبقريّة؟

لقد نحتِّ أنتِ والقدر هذا اليوم بكافة ثوانيه بتمرُّسٍ، لم أكُ أحتاج منك لأن تقولي مرحبًا، فقد كنتُ أكرهها، كانت تلك الكلمة في بداية أيّ حديثٍ لي معك توقّف تدفُّق مشاعري، تقتلني برسميّتها..

ما أجمل ان اتذكّرك، تنتابُني حالةٌ من الفوضى، واللا وعي، والعفويّة.. تتكشّف حلاوةُ الأيام واللحظات بها شيئًا فشيئًا، كأنّي اكلّم نفسي وأُخلَقُ من العدم بحضورك..

كما أنا الآن؟ لا تضحكي إذا كنتِ الآن تشعرين بذلك في بيتك، وأنتِ تحتضنين وسائدك المُخمليّة..

مريم، مريم، لا تسخري منّي، نعم حبُّك حالةٌ مجنونةٌ، صرت أكلّم نفسي من شدة حبِّك..

هل أبدو أبله؟ نعم أنا أبله؟ حبُّك بلاهتي، وجنوني.. باختصارٍ، كل براءة الطفولة حبُّك..

يا مجنونة، حتى التفكير بك يخلّصني من كلّ رتابتي والرسميّة!

أنتِ ساحرة؟ حقيقة؟ عشتار؟ سلطانة؟

أتذكرين القهوة السمراء؟ مُزاحنا الصادق؟

لم أشرب منذ ذلك اليوم القهوة السمراء، مع أنّي أُعاني من هلوسة مدمن. حلفتُ بحبِّك ألا أشربها في انتظارك، وعقدتُ العزم ألا أرتشفَها إلا في حضورك، لكنّي أُخمّر متعلقاتها بقلبي، أُخمِّرُها كي تحترق سويًا بالبنِّ والهيل والشبق..

www.ibtesama.com/vb

يا مجنونتي العاقلة، ساعترف لك بسرٍّ، بما أنك لا تسمعينه ولن تشي به لأحد.

كنتُ أسجّل أسوأ ما فيك على ورقة، فكلّما اشتقت إليك قرأتها، هكذا كنت أهزم الحنين ليعود

إليك خائب الرجاء..

لكن المفارقة، بأنّي أكتب الورقة في الليل، وتضيع في الصباح!

أقسم بأغلظ الأيمان تضيع. لقد كتبتُها مئات المرات، لدرجة أنّي تخيّلت أنّ هناك جنيّةً اسمها مريم، تُلاحقني لتقضي على كلّ بواكير نسيانك!

أنا.. أنا ذلك الرجل الذي يفقد أكثر من نصف عقله معك، ويفقده كلّه حين يكون وحيدًا، إذما تمرّين على عقلي، ضيفةً قويّةَ الحضور!.. حين يفرح قلبي أشعر بأنّي أبله، أرعن، أخرق، ومغفّلٌ قليلًا. يجرّدني الفرح من كل الحصافة والوقار المقيت، أعيش حرًا بطيشٍ كالأحمق!

حين أخرج من هنا، لن أفعل كبقيّة العُشاق، لن أهديك وردة، أعرف جيدًا كم من باقة وردٍ حظت يداك، سأهدِيك الاختلاف، سأهديك بُومة!

أريد أن أتمرّد على كلّ التقاليد والأفكار، لا تعتبري البوم إهانة، فلنتخلّص من هذه الشرقيّة قليلًا، ولننظر لكلّ شيء بعين القلب ولسان الجمال. البوم طائرٌ جارحٌ مثلكِ، لا داعي لأن أُذكّركِ كم من

www.ibtesama.com/vb

كيف تكونين دائمًا بهذه العبقريّة؟

لقد لحتِّ أنتِ والقدر هذا اليوم بكافة ثوانيه بتمرُّسٍ، لم أكُ احتاج منك لأن تقولي مرحبًا، فقد كنتُ أكرهها، كانت تلك الكلمة في بداية أيِّ حديثٍ لي معك توقِّف تدفُّق مشاعري، تقتلني برسميّتها..

ما أجمل أن أتذكّرك، تنتابُني حالةٌ من الفوضى، واللا وعي، والعفويّة.. تتكشّف حلاوةُ الأيام واللحظات بها شيئًا فشيئًا، كأنّي أكلّم نفسي وأخلَقُ من العدم بحضورك..

كما أنا الآن؟ لا تضحكي إذا كنتِ الآن تشعرين بذلك في بيتك، وأنتِ تحتضنين وسائدك المُخمليّة..

مريم، مريم، لا تسخري منّي، نعم حبُّك حالةٌ مجنونةٌ، صرت أكلّم نفسي من شدة حبّك..

هل أبدو أبله؟ نعم أنا أبله؟ حبُّك بلاهتي، وجنوني.. باختصارٍ، كل براءة الطفولة حبُّك..

يا مجنونة، حتى التفكير بك يخلّصني من كلِّ رتابتي والرسميّة!

أنتِ ساحرة؟ حقيقة؟ عشتار؟ سلطانة؟

أتذكرين القهوة السمراء؟ مُزاحنا الصادق؟

لم أشرب منذ ذلك اليوم القهوة السمراء، مع أنّي أعاني من هلوسة مدمن. حلفتُ بِحبّك ألا أشربها في انتظارك، وعقدتُ العزم ألا أرتشفَها إلا في حضورك، لكنّي أُخمِّر متعلقاتها بقلبي، أُخمِّرُها كي نحترق سويًا بالبنِّ والهيل والشبق..

www.ibtesama.com/vb

يا مجنونتي العاقلة، ساعترف لك بسرٍّ، بما أنك لا تسمعينه ولن تشي به لأحد.

كنتُ أسجِّل أسوأ ما فيك على ورقة، فكلّما اشتقت إليك قرأتها، هكذا كنت أهزم الحنين ليعود

إليك خائب الرجاء..

لكن المفارقة، بأنّي أكتب الورقة في الليل، وتضيع في الصباح!

اقسم بأغلظ الأيمان تضيع. لقد كتبتُها مئات المرات، لدرجة أنّي تخيّلت أنّ هناك جنيّةً اسمها مريم، تُلاحقني لتقضي على كلّ بواكير نسيانك!

أنا.. أنا ذلك الرجل الذي يفقد أكثر من نصف عقله معك، ويفقده كلّه حين يكون وحيدًا، إذما تمرّين على عقلي، ضيفةً قويَّةَ الحضور!.. حين يفرح قلبي أشعر بأنّي أبله، أرعن، أخرق، ومغفّلٌ قليلًا. يجرّدني الفرح من كل الحصافة والوقار المقيت، أعيش حرًا بطيشٍ كالأحمق!

حين أخرج من هنا، لن أفعل كبقيّة العُشاق، لن أهديك وردة، اعرف جيدًا كم من باقة وردٍ حظت يداك، سأهدِيك الاختلاف، ساهديك بُومة!

اريد أن أتمرّد على كلّ التقاليد والأفكار، لا تعتبري البوم إهانة، فلنتخلّص من هذه الشرقيّة قليلًا، ولننظر لكلّ شيء بعين القلب ولسان الجمال. البوم طائرٌ جارحٌ مثلكِ، لا داعي لأن أُذكّركِ كم من

www.ibtesama.com/vb

مرّةٍ كنتِ جارحة، والبوم كائنٌ ينشط في الليل بصورةٍ أكبر، وهل أتى ليلٌ عليّ من غير أن تحتلي حدائقي المهجورة؟

ساهديك بومة!

كأنّ الكون الذي قالوا إنّه بدأ بانفجارٍ، سينتهي ونحن ما زلنا في بداية الحبّ! سآخذك ونجلس نلامس أرواحنا على شاطئ البحر، لن نكترث بالمتعصّبين، سأحضِر كرسيّ جلديّ وسِجادتها، وأفرشها على رمل البحر، وأغنّي معك، أحبُّ بحّة صوتك حينما تُغنّين لفيروز!

سنُغنّي سويًا موالًا، ستكونين فيروز وأنا نصري شمس الدين، تغنين أنتِ: "كانت على هاك العريشة تتكي...وتحكي حكي العشاق ويطول الحكي، ولّما عصافير المواسم يهجروا...يهــب الهــوا ويعنّ ع بالا البكي.."

ويردُّ الصدى: "يهب الهوا ويعنّ ع بالا البكي!"

فاغنّي لك وأقول: "كانت هاك الحلوة بعمر الولدنة، تبقى بعقد الياسمين مزيّنة، تقلُو حكيلي ع المحبة والهوى تــ إلحقــك ع آخر شطوط الدني."

فيضحك ويبتسِم معنا ولأجلِنا الوجودُ والصدى..

***

مكتبٌ مصنوعٌ من خشب السدر الجبليّ الصلد، والذي يُستخدم عادةً في صناعة الأثاث الثمين، ذلك أنّه يعيشُ أمدًا طويلًا محافظًا على أناقته. أمام المكتب أربعة كراسي استقبال كلاسيكيّة من خشب الزان

www.ibtesama.com/vb

القوي. خلف المكتب كرسيٌّ متحرك، يجلس عليه مسئولُ ملفّ التحقيق مع العقيد نبيل، ويجلس نبيل على أحد كراسي الاستقبال مجاورًا للمكتب، ويجلس بجواره اثنان من مساعدي المحقق، وشرطيٌّ يسجّل كلّ ما يحدث في التحقيق على ورقة..

كانت هذه آخر لجنةٍ للتحقيق مع العقيد نبيل، فقد مرَّ قبل هذه، على لجنة الاستماع ولجنة تحقيقٍ ولجنة موسّعة. جميع اللجان كانت تتخذ الاجراءات اللازمة لسلامة نبيل، بصفة عمله في الأجهزة الأمنيّة، وبصِفَته عُضوٌ سابقٌ في المجلس التشريعيّ، ولحساسيَّة القضايا بين يديه، فلم يقمْ مكتب التحقيقات بسحب الشرطة والحراسات الخاصة بالعقيد، الأمر الذي لم يكُن بعيدًا عن أيِّ شخصٍ يَخضَع للتحقيق.. كان هناك تحقيقٌ واعتناءٌ في نفس الوقت، أشبه بمساءلةٍ لتصحيح المسار، لكن بصفةٍ تحذيريّة لا أكثر.

لقد كان العقيد نبيل ملتزمًا ومنضبطًا للجنة الاستماع، وكانت التهم المتكاثرة والمتوالدة، والتي تصلِ لعشرات التُهم والقضايا تساقط، لم يكن تحقيقًا بالشكل المطلوب، بقدرِ ما كان عمليَّة ولادةٍ قانونيَّةٍ جديدةٍ لنبيل. فلم يكن هُناك أمرٌ من قِبَلِ أيِّ مسؤولٍ أعلى منه يهدُف لإقصائِهِ عن ساحة العمل، بل العكس.. فلقد خرج العقيد من لجنة التحقيقات بتوصيًات عمليّة لا أكثر، بسبب حساسيَّة الوضع السياسيِّ للمنطقة، والتي تتطلّب الحذرَ، وبسبب تسريب أخبارٍ عن مقتل عدّة أشخاصٍ في السجون، فلقد أجمعت اللجنة على ضرورة إدراكِ الموقف، وتطلّب ذلك الإفراج عن عددٍ كبيرٍ من المُعتقلين

www.ibtesama.com/vb

السياسيِّين، وذلك لمواجهة أجواء التحريض والكراهيَّة بين الأحزاب وأجهزة السُّلطة، وأيضًا لوقف ممارسة العمليَّات الانتقاميَّة التي تزايدت حِدَّتها في الآونة الأخيرة، كي لا تكونَ مدعاةً لاصطياد البعض في المياه العكرة، والتي تهدف لخلق جوٍ من المشاحنات التي تؤدي إلى حالةٍ غير مرغوب فيها..

ولقد أبدى العقيد نبيل تفهُّمه وجاهزيَّته لكلِّ ما أوصت به اللجنة في كافة القضايا المَطروحَة، تحديدًا المُعتقلين السياسيِّين، واعتبار ذلك مَكرُمَةً وعفوًا من السيِّد الرئيس بمناسبة عيد الاستقلال الفلسطينيّ، الذي يوافق تاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٨٨م، اليوم الذي نتج عنه إقامة السُّلطة الوطنيَّة الفلسطينيَّة في قطاع غزَّة وأجزاء من الضفة الغربيَّة، واعتراف عددٍ من الدُول الأعضاء في الأمم المتحدة بدولةِ فلسطين.

***

بعد ثلاثة أيامٍ من اللقاء الأول ليوسف ومريم في مقرِّ السرايا، واكتشافهَا صدفةً غُرفة احتجازه في الطَّابق الأرضيِّ، صارت مريم متواجدةً بخفيةٍ هي والمأذون الشَرعي وثلاثة من أصدقائِها المقرَّبين، تَطَلَّب ادخالُهم المقرَّ جُهدًا وحيلةً من مريم، لكنَّها في النهاية نجحت في ذلك، بفضل سيَّاراتها التي لا يستطيعِ أن يرى أحدٌ ما بداخلها بسبب الزُّجاجِ الأسود (الفيميه) والستارِ المُغشَّى الحاجب للشمس، وأيضًا لاعتياد مريم الحضورَ مرارًا إلى السرايا، ودخولِها وخروجها من الباب الخلفيِّ الخاص بالمسؤولين والضبَّاط وكبار موظفيِّ الأجهزَة الأمنية..

اتَّضح ليوسف كم هي قويَّةٌ ومجنونةٌ، بل أذكى النساء اللواتي قابلهن في حياته. اقتربتْ مريم من شُبَّاك غرفة الاحتجاز، والذي ليس

www.ibtesama.com/vb

له إلاّ ثلاثة قُضبان حديديَّة، ونظرت بعينيها ليوسف، تقولُ بأحداقِها اقتربت اللّحظة، ثم همست في أذنيه وهي تُناضل بقوَّتِها خجلَها:

– لا تستعجلْ على جنوني، ما زال لديَّ أكثر، دعه ينضج قليلًا إلى أن تخرج..

ثم التفتت إلى المأذون، الذي كان قد انتهى من ترتيب أوراق الزّواج. كان الزّواج سريعًا، يَنقُصُهُ الإشهار، ووليُّ الأمرِ. أمّا قانونيًا، لم ينقصْهُ شيء..

وضعت يدها في يد يوسف، وأتمّ المأذون قراءَة الفاتحة وعقدَ القران، وشهّد أصدقاؤها على ذلك، الذي كان أحدُهم محاميا، وكان منوّطٌ به تسجيل عقدَ الزواج في المحكمة بعد استقرار أحوالِهما.

كانت ترتبِكُ، وبحاجةٍ لأن تنهار أمام يوسف، لكنّها سارعت في استجماع قِواها قدْرَ ما استطاعت، كي تُخرِج المأذون وأصدقاءَها من المكان، وتعود بعدها لتحظى بدقائقٍ قصيرةٍ مع يوسف..

مرّت ساعةٌ، غابت فيها مريم لتُخرِجَ أصدقاءَها والمأذون، عادت لتظهرَ أمام يوسف، ولكن بصفةٍ أُخرى.. هي الآن حبيبتُه وزوجتُه!

كانت أقرب للانهيار، لولا رأفةُ قواها بقلبِها. تبادلا الصمت، ثم النظر، بدأ يوسف وهو في أشدِّ درجات الخجل الشرقيِّ يغنّي لها همسٍ مقطعًا لكاظم الساهر، المطرب الذي تهواه مريم، مقطعًا من اهنية هل عندَكِ شكٌ، والذي كتب كلماتها شاعر المرأة الدمشقيِّ نزار قباني:

www.ibtesama.com/vb

"هل عندك شكٌّ أنّك أحلى وأغلى امرأةٍ في الدنيا؟

وأنَّ دُخولك في قلبي هو أعظم يومٍ في التاريخ

وأجمل خبرٍ في الدنيا

هل عندك شكٌّ أنّك عُمري وحياتي وبأنّي

من عينيك سرقتُ الدار وقِمت بأخطر ثوراتي

أيتها الياقوتة والسلطانة والوردة والريحانة

والشعبية والشرعية بين صحيح الملكات.."

ابتسمت مع غنائِه، ثم تحوّلت ابتسامتُها لضحكةٍ لم تكن قادرةً على كِتمانِها، أصابت يوسف بخجلٍ شديدٍ، حتى أنَّ وجههُ أصبح ورديًّا..

ضحكت مرةً ثانيةً وقالت: آسفة، أجمل ما في غنائك أن صوتك رجوليٌّ جدًا، وأنا أحبُّ لصوتك أن يتلو شعرًا أكثر، لأني أحبُّك كما أنت، كاتبي وشاعري، ثم هناك شيءٌ آخر، أنت لا تحفظ كلمات الأغنية جيدًا، لا يوجد في الأغنية شيءٌ اسمه سرقتُ الدار، الصواب هو " بأنيّ من عينيكِ سرقت النار، وقُمت بأخطرِ ثوارتي، ثم ليس ذلك فحسب الترتيب الصحيح للمقطع أيّتها الياقوتة والسلطانة والوردة والريحانة ليس كذلك بل أيّتها الوردة والريحانة والياقوتة والسلطانة، ثمّ أنا أعرف أني أجمل ملكة بين الملكات، أُريدك أن تقول لي غزلًا لم يقلْهُ أحدٌ لأحدٍ قبلي، فلا تقتبس ولا تعوّل على نزار من اليوم..

www.ibtesama.com/vb

لكنّها محاولةٌ جيدةٌ منك، والأجمل ألا تكرّرُها، لتبقى فريدةً مثل هذا اليوم!

كانت مريم تقول ذلك بأسلوب سلس، ويوسف يقف مذهولًا. أذهلتهُ قوّة شخصيّتِها، وشَعَرَ أنّه في حضرة امرأةٍ مختلفةٍ، مستبدةٍ بعضَ الشيء، لكن أغلبَ المبدعين والفنانين يعشقون المرأة المستبدّة، لديهم ميولٌ مازوخيّة. الرجالُ المختلفين، يعشقون المرأة المختلفة، والمرأة المختلفة في المجتمع الشرقي، هي القويّة، الناجحة، المستبدّة.. يوسف في حضرة امرأةٍ من نوعٍ آخر، امرأةٍ شرقيّةٍ من نوعٍ آخر، ببساطة تمرّدت على كلّ مفروضٍ، فهي من طلبت يده، وهي التي تمسك زِمام الأمور..

شعرت مريم وكأنّها طِفلةٌ من جديد، كانت علاقة حبِّها مُرتبطة بالطفولة، وُلدَت إلى جانب روحها. لكنّ فترات الفراقِ المتقطّعة، جعلها تنمو كامرأةٍ، قلبُها مِلكُ يمينها..

اقتربت مريم من الشبّاك، وهي تُشير باصبع السبّابة له بالاقتراب. محمّد، ولم يعرف كيف يتصرّف، وجدَ نفسهُ مسحورًا كليًا، يقتربُ ببطءِ سلحفاةٍ من شفاهِا. أغمضت عينيها، واقتربت منه قليلًا، وأثناء ذلك فاجأتْهُ بنظرةٍ صوبَ عينيهِ مباشرة.. كانت نظرةً قويّة، مُنعشة، فيها من الدلال ما يكفي لهزيمة قبيلةٍ من الرجال..

حركت أحداقَها صوبَ شفتَيه، ثمّ اقتربت منه، وأطبَقَت شفتيها على شفتيه بحنيّةٍ وخِفّةٍ ودلال، وكأنّها تُداعب كريمة الآيس كريم.. ببطءٍ شدّت شَفَتَهُ العُليا قليلًا، ثمّ تركتها فجأةً تعودُ لمرساها،

www.ibtesama.com/vb

واعتقلت شفتاها شَفَتَه السُفلى. بدأت تُلامسها، تدلّلُها، ثم تركته يتجرّع الشّهد من فمها، وابتعدت أخيرًا بعد أن تمكّن الخجل منها..

غمزته، ثم أشارت بإصبعها مجدّدًا مُحذِرةً إيّاه:

– في المرةِ القادمة اقرأ أيَّ عقدٍ توقّعُ عليه، في عقد زواجنا الذي وقّعته، العصمة في يدي!

***

فندقٌ قريبٌ من المخيّم، بعيدًا عن هواه المُثقلِ بالألم، يُطلُّ على شاطئ البحر، وعلى أهمّ موانئ فلسطين التاريخيّة..

ميناء غزّة، المكان الأجمل في القطاع، عريقٌ، لم يغبْ عن نصوص التاريخ، كان محوريًا في العالم القديم مُتربّعًا على طُرق القوافل التجاريّة، وقد اُكتُشِفَت فيه مؤخرًا مجموعةٌ من الأعمدةِ والتيجان الرخاميّة، يعودُ تاريخها إلى الفترة الرومانيّة زمنَ الإمبراطور قسطنطين، أي أنّها تعود للعام ٣٣٥ م..

يجلس رأفت والعقيد في مطعم الفندق، المفتوح على السماء وعلى البحر، الذي يحملُ بخفّةٍ مراكب الصيد وبعض السُّفن التي لم تتحرّك من مكانها منذ سنين.. سُفنٌ يزيّنُ جانبيها الصدأ، وقِصصٌ وأساطيرٌ ألِفَها وتآلَفَ معها أبناء المخيّم، وروّاد المقاهي البسيطة..

بوارجٌ اسرائيليّة على بعدٍ لا يتجاوز بِضعَ مِئاتٍ من الأمتار، يتسلّى الجنود على متنِها باقتناصِ الصيّادين، إذا ما تجاوزوا رصيفَ البحر..

www.ibtesama.com/vb

الميناءُ هو اختصارٌ لبقايا حياةٍ، بقايا حضارةٍ، بقايا تاريخٍ، ولطمةٌ على الخد!

خلع العقيدُ مِعطَفه، وأشعل السيجار، وبجانِبه مدير مكتبه يُنهِي الصالَا، ثم يلتفتُ إلى العقيد باهتمامٍ في السؤال، ولا مبالاة بالموضوع:

– ماذا حصل في لجنة التحقيقات؟، هل يحتاج الأمر لتدخل اللواء؟

– لا أبدًا، لقد أُغلِق التحقيق اليوم. أُريدك أن تُفرج عن مئةِ مُعتقلٍ سياسيٍ لا يُمثّلون خطرًا على أمن الدولة، وأحضر لي تقريرًا بأسمائهم، وسأوقّعُه لك غدًا.

– مئة معتقل؟ كثير جدًا، ما الهدف من ذلك؟

– مكرمةٌ من السيِّد الرئيس..

– ماذا عن يوسف، مريم جاءت لتَسأل عنه، ونفيت وجوده لدينا، وتحدّثتُ معها عن بعض الشوائب العالقة في ذهنها، وأعتقد أنّها بخيرٍ الآن.

– هل ما زالت متعلقةً به رغم كل ذلك؟ عليه اللعنة!..

– هو سوء تقديرٍ وقد تدبَّرتُ الأمر، لكنَّك لن تحدِّثَها عن هذا الموضوع، فلقد وعدتُها ألا أخبرك بشيء، إلى حين ألقاها مرة اخرى..

– لا تقلق، عقلي يكفيه ما فيه، تدبّر أنت الموضوع.

www.ibtesama.com/vb

- إنّني أفضّل الإفراج عن يوسف، فهو مُحتَجَزٌ بلا تُهمة، ووجُودُه عندنا لن يستفزَّ أخاه في شيءٍ، فهما أشبه بالغرباء، وأنا سأتدبَّر خروجه بما يليق بك، وساوضح له ملابسات الاحتجاز بما يتناسب مع الوضع الراهن.

- لم افهمْك...

- سأُقنعهُ بأنَّ احتجازَه كان على سبيل الخطأ، وأنّك حين علمت بوجودهِ في المعتقل، ثار غضبك وأمرت بالافراج فورًا عنه، ومحاسبة المسؤلين عن ذلك.

جاء النادل لِيُقاطِع حديثَهُما، سائلًا عمّا يحلو لهما من قائمة الطعام، فأشار العقيد إلى رأفت لكي يُنجِز الطلب. أملى رأفت للنادل بالطلب، ثم عاد ليُكمِل الحديث مع العقيد:

- يُستحسَن أن نُفرِج عنه، فهو لا يمثّل أيَّ خطرٍ، وسأخرجه في إطارٍ خارجٍ عن مكرمة الرئيس.

أومأ العقيد برأسه موافقًا، وعاد متأمّلًا الميناء، ثم صار يحدّث رأفت عن رغبته بشراء شقةٍ تُطلُّ على الميناء، حيث لا يستطيع العقيد نفسه أن يمتلك قطعةَ أرضٍ تطلُّ على الميناء بسبب غلائِها الفاحش، وعدم رغبةِ أيِّ ملَّاكٍ في بيعِ أرضه، كان قادرًا على شراء شقة، لكنّه رُغم ثراءِه لا يستطيع أن يشتري أرضًا هناك..

حَضَرَت الأطباق، كلُّ ما على السفرةِ لا يُشبه طعام أهلِ المدينة، كانت خاليةً من الزيتون والزعتر، سُفرةٌ تشوِّهُ حُرمة المشهدِ البحريِّ العريق..

www.ibtesama.com/vb

افرج رافت عن يوسف، بعد تمثيليةٍ هزليّة أعدّها، وسَلّةٍ من الاعتذارات الواهية.

أيعقَل أنّ رافت يُصدّق القناعي بوقاحة مشيهِ في جنازة سجني؟ يسأل يوسف نفسه.

أخذ أغراضه كاملةً، لم ينقُصها شيء، هاتفه، حُفنةُ نقودٍ، وساعةٌ فضيّة. كان يمشي متردّدًا أثناء خروجِه من بوّابة السرايا، لا يُريد أن يصادف نَظَرَةَ عينِ أحدا

رغم كلّ ذلك، كان سعيدًا جدًا، فقد ارتدى في السجن صوت مريم، وذكرى مريم، وروح مريم، ويدَ مريم.. وحدث ما لم يحدث له منذ نعومة أظافره، قُبلة، وكلمة، حتى زواجا. لا تنتابه الرغبة بأخذ أيّ شيءٍ من ذكريات السّجن، غير الساعات التي غيّرت فيها مريم حياته..

خرج يوسف من السّجن حيًا بإرادةٍ قويّة، إرادة الحبّ واستمرار الحياة. كلُّ شيءٍ محكومٌ بالضرورات، يتجاوز بألمٍ بعضًا من بعضِهِ، كي يواصلَ الوصولَ إلى الاستقرار. بدأ يتشافى من الظلم بمجرّد خروجِه من السّجن، وانخراطه في زُحام المدينة. الرسومات على الجُدران اختلفت، صارت تحمل أسماء شهداءٍ جُدد. دون ذلك كان الشارع كما هو، لم يتغيّر منذ آخر مرةٍ رآه..

تمشّى قليلًا في شارع الجندي المجهول، الموازي لسجن السرايا. كان يرى المكان بعينين مختلفتين، كأنّهما عدستيّ فنانٍ، هكذا هم عادةً

www.ibtesama.com/vb

المُحرَّرين، يرون الحياة ملوّنة خارج نطاق جدران السجن الرماديّة البشعة..

يوسف لا أقارب له من الدرجة الأولى في غزة غير أخيه مصطفى، فعمُّه يقيم في عمّان ويحمِل الجنسيّة الأردنية، وله خالٌ أيضًا في ألمانيا لا يعرف شيئًا عنه. لم يكن ينتظره أحدٌ حين خرج، ظلّ يتمشّى في حديقة الجنديِّ التي تفصل شارع باتجاهين.

تُعتَبر حديقة الجندي فِسحة لأهلِ غزّة، تقع في وسط القطاع. في أوّلها نُصُبٌ تذكاري بُني تخليدًا لذكرى جندي مجهول، ويقع مبنى المجلس التشريعيّ الفلسطينيّ في الجهة المقابلة له. أكمل طريقَه صوب النُصب، ليستَريحَ على قاعدتِهِ الخَرسانية، التي ترتفع نحو مِترين عن مستوى الأرض، وليستظلَّ في الجِهةِ المُعاكسة للشمس تحت تمثال جندي يرتدي بزّته العسكريّة، ويحملُ في يدهِ اليُمنى سلاحه، ويشير بسبابته للقدس.

كانت خارطة فلسطين محفورةً على الجانب الأوّل من القاعدة الرخاميّة التي تحمل التمثال، وأسفلها آيةٌ قرآنيّة "و لا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون". وفي الجانب الثاني كان علم فلسطين بألوانه الأربعة، محفورًا أسفله عبارة مكتوبٌ فيها "ليُنشَر بعد طيِّ ذلك العلمِ ولينتعش أملٌ يكبو به الألَمُ إن شاء الله". أما الجانب الثالث، فقد خُطَّت عليه أبياتٌ من الشعر تقول:

للأوطان في دم كلِّ حرٍّ يدٌ سلفت ودينٌ مُستحق

وآخيرًا، في الجانب الرابع، والذي استوقف نظرَهُ، كانت خارطةٌ للوطن العربيِّ، مكتوبٌ أسفلها أبيات أُخرى للشاعر العربي الكبير أبي القاسم الشّابي:

www.ibtesama.com/vb

إذا الشعب يومًا أراد الحياة   فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا بدّ للّيل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

قرأ يوسف هذا السَطر بسخرية تنمُّ عن حرقةٍ، واتكأ على الجدار. أخرج شريحَتَهُ، ووضعها في الهاتف وأجرى اتّصالا إلى مريم..

على الجانب الآخر، شهقت مريم حين رأت على هاتفها رقم يوسف يتّصل، فتردّدت في الردّ، لكنّها لم تقوَ على الرفض، فشقّت خندقُ صَدرِها وأجابت بتردّد..

- ألو

ثم صمتت. جاء صوت يوسف نقيًا، لا يخلو من كسرةٍ وشجن..

- كيفك يا إم ولادي، أنا صرت حر!

كان صوتُه ولفظُ "إم ولادي" له إيقاعٌ خاص عند مريم، أصابها بحالة قشعريرة تُسمّى باللغة الإنجليزية " Butterflies in the stomach"، وهي حالةٌ فريدةٌ من الإحساس البدنيّ، تنشأُ نتيجة إطلاق سراح هرمونات الأدرينالين في الجسم، والتي تسبّب زيادةً في معدّل دقّات القلب. وترتبط هذه الحالة بالنّشوة والإثارة والحب، والتي لها صلةٌ وثيقة مع تماوج المشاعر في المعدة..

أيُّ حبٍّ هذا؟ إنّه حصاد صمت سنين..

بعد مضيٍّ ثلاثة أنفاسٍ وشهقةٌ خفيفةٌ، تكلّمت مريم:

- صوتُكَ يفتح جنّة في باطنِ الأرض، ذاكَ العالم السفليّ..

www.ibtesama.com/vb

ابتسم يوسف وقال:

– كيف تكونين بهذا الذكاء حتّى في الغزل!

ردّت مريم:

– المرأة القارئة يا طِفلي، المرأة القارئة، احذر أن تَضَع لها سقفًا من التوقعات، كي لا يتهار على رأسك!

كانت مريم تتنقّلُ بين خجلِها وقوّتِها، كنادلٍ متمرسٍ في أحضان بيتٍ ملكيٍّ، قمّةُ السلاسة والخفّة والإقناع. طَرِبَ يوسفُ جدًّا وهو يُحادِثُها، كأنّه في حالة ثمالة، وكان المارة على الطريق يتراشقون بغرابةِ النظر إليه. قال بحماسةٍ لها:

– أتعرفين ماذا استفدتُ من السِّجن غير الإفصاح عن كثر حُبّي، وملامسةِ يديكِ، والارتباط للأبد بهما؟

قالت:

– القبلة!

قال:

– أريد مثلها ألفًا أو مليونًا لا فرق، لكن هناك أيضًا شيءٌ آخر.

قالت:

– ماذا استفدت يا بعلي!

قال وهو يضحك من اللفظ:

– بعلُكِ تعلّم رقص التانجو جيدًا. كان لديَّ وقتٌ كبير لكي أتدرّب عليه. كنتُ قد حَفظتُ الخطوات من قبل، لكنّي خَلقتُ من

www.ibtesama.com/vb

صوتِ الريح وحفيف الأشجار، وضجيج الزحام وبعض مشاهد الذاكرة مسرحًا في سِجني. ثمان حركاتٍ أساسيَّة، " Basic Steps "، بالقدم اليمين خطوةٌ للخلف، وباليسار خطوةٌ جانبيَّة وباليمين خطوةٌ للأمام، ثمَّ بالقدم اليسار خطوةٌ للأمام، ومرةً أخرى باليمين خطوةٌ، ثمَّ على اليسار نضعُها، وبالقدم اليسارِ خطوةٌ للأمام، ثمَّ خطوةٌ جانبيَّة بالقدم اليمين ثمَّ نرفع اليمين على رؤوس أصابعِنا قليلًا، وأخيرًا نضع اليسار إلى اليمين..

ردَّت وهي تلتقِطُ أنفاسها:

– أُحبُّكَ، أنت تحفظُ الطريقة حرفيًا مِثلما أخبرتُك بالضبط، رُغم أن مرَّت سنون!

قالت ودموع عينيها على مشارِف الأحداق: "بحبك يا يوسف".

اخذ يوسف شهيقًا عاطفيًا، وأكمل حديثه:

– أتعرفين مقالةَ "صوتِكِ الأرجنتينيّ" التي كتبتُها وأعطيتُك إيَّاها كي تصحِّحي أخطاءَها؟ كنتُ أتخيَّلُك أنتِ بطلتها، كنتُ أفكِّر بك كزوجةٍ منذ زمن، كي أكتفي بتبديل الهواء برذاذ عطرِكِ، كي أشعُرَ بوجودك وتُلهِمني هالَتُكِ. لديَّ الكثير أحدِّثُك عنه، كلُّ حرفٍ، كلُّ إيماءةٍ كلُّ حدثٍ في حياتيَ كان متعلِّقًا بك، كنت أُراقبك دائمًا، أحفظُ حتَّى طريقَتَكِ في وضع نظَّارتك الشمسيَّة..

أريد أن أعود إلى البيت الآن، كي أستحمَّ وأرتاح قليلًا، هل يمكنني أن أراكِ في المساء؟

www.ibtesama.com/vb

ردّت مريم: نعم، نعم في المساء مناسب، في مقرّ جمعيّتي، سأنتظرك. ارتحْ أنت الآن، وسأتّصل مساءً بك.

ثم بشيءٍ خفيٍ من العاطفة والحبِّ والحنان قالت له: "دير بالك على نفسك"..

فردَّ بالمثل: "وإنتِ كمان، ديري بالك على نفسك".

***

داخلَ إحدى الشُقق التي عادةً ما يجتمع فيها أفراد التنظيم، في أحد المباني الذي يقع في الأحياء المُزدحمة، حتّى لا يثير ذلك أي انتباه، كان مصطفى وأبو صهيب في اجتماعٍ، يخطِّطون لاختطاف العقيد نبيل.

كان مصطفى باردًا جدًا في هذا الاجتماع، يتأمّلُ فِكرةُ على قلقٍ، وكان رفيقُه أبو صهيب متحمسًا جدًا لفكرة الانتقام، كانت استهوته لدرجة الجنون، وكان يُغدِق الاقتراحات والتحذيرات.

لقد جمع كلَّ المعلومات عن تحركات العقيد، وأفاد بأنّه تحت حراسةٍ أمنيّةٍ مشدَّدةٍ بشكلٍ دائم، وذلك بسبب ارتباطه بالعمل في الأجهزة الأمنيّة والاستخباريّة الحسّاسة..

قاطعه مصطفى قائلًا: نبيل لديه قدرةٌ فائقة على التنقُّل دون برنامجٍ محدَّد، لا يسلكُ الطريق نفسه إلى العمل؛ لذلك يجب أن يُستَثنَى تنفيذُ العمليّة في أوقات عمله كليًا.

www.ibtesama.com/vb

كان في الاجتماع أيضًا قائد خليّةٍ في التنظيم، فتدخّل وأردف قائلًا:

في المساء يسهر العقيد لساعاتٍ متأخّرةٍ في أكثر من مكان، ويصعب توّقع تواجُدَه في تلك الساعات، وفي فترة الظهيرة يتواجد في عمله وتصاحبه حراسةٌ أمنيّةٌ مشدَّدة، ومن المستحيل الدخول في اشتباكٍ مسلّحٍ، فقد يؤدّي ذلك إلى مقتل عددٍ كبيرٍ من الطرفين. لذلك، أرى أنّ أنسب وقتٍ هو في الصباح، حين تأتي سيّارته لتقلّه ولا يكون معه إلا حارسٌ شخصيٌّ واحد.

قال مصطفى: نعم أعتقد أنّ هذا الوقتَ الأنسبُ. في الصباح تكون الطرقات خالية، فنستطيع التحرُّك سريعًا في الشوارع والانسحاب.

قال أبو صهيب: لقد رسمت خِطّة هروب سيارتنا من طرقاتٍ خلفيّةٍ، تكون عادةً خالية حتّى في ساعات الزُحام، وبعيدًا عن أعين كاميرات المُراقبة المعلّقة على أعمدة الإنارة.

سأل قائد الخلية: في حال حدث ما لا يُحمَدُ عُقباه، وتمّ تَبادلٌ لإطلاق النار، وتصرُّف العقيد وحارِسُه بحماقةٍ؛ فما الحل؟

ردّ أبو صهيب متسرّعًا: نُبادِلهُ إطلاق النار ونقتلُه طبعًا.

نظر مصطفى إليه بشيءٍ من الذهول.. أربكتْهُ البساطة التي يتكلّمُ بها أبو صهيب عن القتل، فهو في العادة يميل للعمل السياسيّ

www.ibtesama.com/vb

التنظيميّ أكثر من العسكري؛ لكنّ الاعتداءات الأخيرة أجبرته للانخراط في هذا المُستنقع..

صمت قليلًا مُفكرًا، ثم أومأ برأسه موافقًا.

ابتسم أبو صهيب وقال: عند صباحِ بعد غدٍ، تحينُ ساعة الصفر.

ثم سمّى أبو صهيب ثلاثة أفرادٍ، تتروح أعمارُهم بين الـ ١٥ سنة والـ ١٧ سنة للصعود على أعمدة الكهرباء قبل نِصفِ ساعة من تنفيذ العمليّة، لتعطيل عمل كاميرات المُراقبة، وهم يرتدون أقنعةً تُخفي وجوهم، وقال إنهم أفضل ثلاثة أشخاصٍ ممكنٌ أن يقوموا بهذه الخُطوة، نظرًا لمهاراتهم العالية في القفز والتسلُّق على المباني والجدران، فلقد كانوا قبل انضمامهم للتنظيم في فريق باركور. والباركور هي مجموعةٌ من حركاتٍ رياضيَّةٍ، تتمثلُ في الانتقال من نقطةٍ إلى نقطة، بأكبر قدرٍ من السُرعة، باستخدام القُدُرات البدنيَّة العالية، وتَخَطّي بسلاسةٍ العقبات والموانع أيًا كانت، سواء من الصخور أو فروع الأشجار أو قُضبانٍ حديديّة..

وافق الجميع، ثم خرج أبو صهيب مسرعًا لكي يستعد للعمليّة، وظلّ مصطفى جالسًا على الكرسيّ المُتحرك في غرفة الاجتماع ومعه قائد الخليّة.

سأله قائد الخليّة عن شرده، فنفى أن يكون ذلك متعلقًا بالعمليّة وتحجّج بأخيه قائلًا:

www.ibtesama.com/vb

احاول الاتّصال به منذ ثلاثة أيام وهاتِفُه مُغلق، وحاولت زيارَته في البيت ولم يكن هناك..

فردَّ عليه القائد: إذا أردت أستطيع تكليف أشخاصٍ بمراقبته.

فرفع مصطفى يديه نافيًا: لا داعي، سأنظُر في أمره بعد تنفيذ العمليَّة، الآن تستطيعُ الذهاب.

سلَّم عليه القائد وخرج هو أيضًا، وبقي مصطفى لوحدِه. كانت في قلبه بذرةُ خوفٍ بدأت تنمو أكثر.. صار يحدِّث نفسهُ: يجب أن امضي قدمًا، فمنذ متى يمنعني الخوف، أيًا كانت النتيجة، بمشاركتي أو بغيرها ستنفَّذ العمليَّة.

ثم فرش سجَّادة الصلاةِ، ودعا أن تنجح هذه العمليَّة دون أن يضطروا لإطلاق النار وقتلِ أيِّ أحد، ثم صلى مرةً أخرى صلاة استخارة، عسى أن تُهَدِّئ من روعِه ويَستَكنُ قلبُه. وبعد أن أنهى صلاة الاستخارة، شعر بانقباض قلبه أكثر، لكنَّه تجاهل ذلك وقال: لا مجال للتراجع، سنواجه بشجاعةِ الآثار المُترتِّبة على هذه العملية أيًا كانت..

***

أجواءٌ مشحونةٌ بالحذر الأسريِّ، مثل قُنبلة صوتٍ على حافة الانفجار.. في غرفة الصَّالة تجلس مريم وعمُّها نبيل يشاهدان التلفاز، يحاولان النظر إلى بعضِها بعفويَّة، لكنَّهما يخشيان تقاطع الأحداق، كي لا تتكشَّف ملامح الحديث.

www.ibtesama.com/vb

كان العقيد متلهّفًا لسماع أيّ حديثٍ بخصوص الأمور الشخصيّةِ لمريم، التي لا تُفصِحُ له أبدًا عنها. فكّر قليلًا وقال حان الوقت لُفاتَحتِها بهذا الموضوع. فرك راحة يديه، ثم مسح بهما بلطف ذقنه، وأخرج علبة السجائر وأخذ منها واحدة، وأمسكها بقبضةِ يده لتَستَقِرّ داخل راحةِ يده. كانت هذه طريقتُه ليبدو قويًا في الحوار، ولتُساعِدَه في التغلُّب على قلقِه.

تنبّهت مريم لذلك بفِطرَتِها، وشعرت أنّ لديه شيئًا يريد أن يُفاتحها به. كان نبيل يُحاول أن يبدو كتومًا.. حدّقت في عينيه بغرابةٍ، ثمّ حوّلت نظرَها للتلفاز..

كَسَرَ عمُّها ذلك الصّمتَ الصّاخب وسألَها: ألّا تُفكّرين بالزّواج؟

قبْلَ يوسف كانت فِكرة الزّواج لدى مريم مُختلفة عن أيِّ فتاة! كانت تُثير سخريتها، وتُخيفُها فكرة الارتباط والأمومة ورعاية الأطفال، وكانت تشعر بانزعاجٍ شديدٍ إذا ما حضرت فرحَ إحدى صديقاتها أو أقاربها، أو إن مازحها أحدٌ بقوله (عقبال ما نشوفك عروسة ونفرح بيكي)!

عادةً هي لا تجلس مع سيدات العائلة، حتّى لا يُفاتِحنَها بموضوع الزواج، وكي تتجنّب حواراتٍ عقيمةٍ. لا تريد أن تسمع أيَّ عروضٍ للزواج، سواء كان الزّوجُ صالحًا أو طالحًا، متعلمًا أو جاهلًا، غنيًا أو فقيرا. الفكرةُ بحدّ ذاتها مرفوضةٌ. كانت حينها سيدةً عمليّةً برغماتيّةً من الطراز الأول.. كانت بصراحة ترى الزّواج التقليديّ رغبةً حيوانيّةً بحتة، وحاجةً تُمارَسُ من خلالِها المرأة حريّتها بقليلٍ من

www.ibtesama.com/vb

الاستقلاليّة، وفي أفضل الأحوال كانت تنظُرُ للزّواج على أنّه طريقةٌ ليكسُرَ الوحيدون عِزلتَهم، ولتَرْضَى عنهم نفوسُهم..

لكن ما إن أعادت آلة الزمن حبَّها، الذي مضى بِصَمْتٍ وعاد بقوّةٍ، حتّى صارت تُريد هذا الحُلم، الذي طالما تجنّبت سماع حديث صديقاتها عنه. صَبْرُ يوسف الأيّوبيّ لسنين على رَفضِها اللامباشر له، وشيءٌ من هوسِهِ بالأشياءِ التي تَعشَقُها، ومن حسِّهِ المُرهَف والسّاخر في آن واحد.. تَدويناته الفكريّة التي تسبحُ في عقلها بتألّقٍ، شُعورها اللامع بوجودِها في كلّ سطرٍ يكتُبُه، وكلّ لون في ثيابه يَلبسُه، ومديح النساء لذوقه.. كلُّ هذا كانَ سببًا عظيمًا لأن يجعلَها مدام يوسف!

تسألُ نفسها: هل يُراوغني ليعرفَ شيئًا؟ هل علِم بزواجي من يوسف؟ سألت مريم نفسها وظلّت صامتة، حتّى أنّها لم تحوّل إليه نظرَها.. تظاهرت باللامبالاة..

كرّر العقيد سُؤاله: إلى متى ستبقين متجاهلةً الحديث عن الزواج؟

هدوء يُغلّف عاصفة أجابت: حين أنتهي من الماجستير..، وحتّى ذلك الوقت لا أُريد مناقشة الموضوع إطلاقًا مع أحد.

باغتها بسؤالٍ كان الأكثرَ استفزازًا بالنسبة لها: هل ما زلتِ تريدين يوسف الفلاح؟

تمالكت أعصابها، وقد استهلكت في ذلك أكثر من ثلثيّ طاقتها وقالت: لا يوسف ولا أحد!

www.ibtesama.com/vb

أردف محاولًا إقناعها: أريد أن أطمئنَّ على مستقبلكِ، إذا عشتُ الآن لأجلِك، لا أعرف أين غدًا سأعيش.

كان يُحاول أن يثير عُواطفها بالإشارة إلى اقتراب أجلِه، كونهُ مريضٌ بثقبٍ في القلب. وحينما لم يُجدِ ذلك نفعًا استطرد حديثه:

– أريد أن أكمِلَ وصيّة والدتك، وأنا لا أضمن عُمري بعد اليوم، ألا تريدين أن ترتاح أمُّك في قبرها؟

ردَّت بعصبيّة: من فضلك، توقف عن استخدام صيت أمّي لإقناعي بأمر محسوم. لو كانت أمّي على قيد الحياة، لما طلبت منّي نصف الطلبات التي تطلِبُها أنتَ مني على حسّها. تسجيل عقارات باسمي كي تحفظ مُستقبلي كما وصّتك أمّي، نقلُ أملاكِ، توقيعٌ على أوراقٍ لا أقرؤها، وكلُّ هذا كي تحفظ مستقبلي كما وصّتك أمي. لو كانتْ تعرف أنّك ستعتَقلُني باسم وصيّتها، لما وصّتك بشيء. ألا يكفيك كلُّ ذلك؟! لو سمحت لا تتدخل في هذه المسألة على الإطلاق، الزواج قضيّةٌ تخصُّني بكامل حذافيرها، فكفَّ عن ذلك.

أثار ذلك الردُّ عصبيّة نبيل، خصوصًا إشارتها لموضوع العقارات، والتي يستغلُّ قربها منهُ ليسجّل أملاكًا باسمها، ذلك لتهرُّبه من القانون ومن سؤال "من أين لك هذا؟"

حاول تهدئة أعصابِها بسردِ فضائله عليها في تربيتها، وتعليمها، وجعلِها أكثر من ابنته، فقاطعته حين بدأ الحديث بهذه الطريقة قائلة: لأجلِ هذا كلّه أنا أرجوك ألا تتدخل في مسألة زواجي!

www.ibtesama.com/vb

قال لها: أعذرك بذلك لكن هناك عريسًا يريد خِطبَتك. فقط أعطي نفسك فُرصةً للقائه، وإذا لم يُعجبْك الأمر، كأنْ شيئًا لم يكن. الرجلُ من عائلةٍ مدنيَّةٍ مرموقة ومُحترمة، ومن مستوى اجتماعي جيد جدًا، شخصٌ مقتدر، عمره ثلاثون سنةً، أي أنَّ سنَّهُ مناسبٌ جدًا لك، سيتخرَّج هذه السنة بدبلوم في التجارة..

عائلتُه من ملّاك الأراضي والعقارات، ولديهم عدَّةَ شركات ناجحة على مستوى قطاع غزَّة. لقد قابلتُه، وأراه مناسبًا لك، وكذلك زوجة عمِّك توافقني الرأي، فقط قابليه، أعطِه فرصة.

كان باقي على موعدها مع يوسف ساعتين. شعرت أنَّها فُرصتها كي تختلق سببًا للخروج، لتفرِّغ عن نفسها بعد ضيقِها من هذا الحديث. لم يكن صعبًا عليها أن تذرف دموعًا، الكلُّ يشهد ببراعتها في التمثيل، ولم يكن هذا الحوار يُثير شهيَّتها على الحزن، بسبب حالة البلادة التي اكتسبتْها من خلال الحوارات العقيمة التي يفتحُها معها عمُّها مِرارًا. طوال حياتهم لم تكن هناك وسيلة تواصلٍ جيِّدة بين مريم وعمها، كانت مقبولة، لكنَّها لم تكن ممتازةً كما مع رأفت مدير مكتبه، والذي كان يطلب عادةً منه التَّدخُل حين تسوء الأمور بينهما. أرادت أن تستغلَّ هذا الحوار للخروج، فصارت تشحن الأجواء أكثر، تصرَّفت بلامبالاةٍ مُطلَقَة أثناء حديثه عن العريس، وما إن انتهى من ذلك حتى قالت ببرود:

– أنت تريد أن تعقد صفقةً على حساب حياتِي، هل تظنّني عقارًا تريد المضاربة عليه؟، أنا لن أتزوج أيَّ جحشٍ، حتى لو ابن الرئيس..

www.ibtesama.com/vb

ثمّ أجهشت بالبكاء، وعلى إثرِ ذلك خرجت زوجة عمّها من غرفتها، وأخذتها لتجلِسها عندها وهي تحاول تهدئتها، وقالت لها: لا تقلقي، لن يفتح معك الموضوع بعد الآن.

ظلّت تُحاول طمأنتها، إلى أن اقترحت عليها الخروج إلى الهواء لتهرُب من هذا الجوِّ المشحون.

ما أجمله من اقتراح،هذا كلُّ ما كانت مريم تريده!

***

عند الساعة الثامنة مساءً، وبعد أن استطاعت أن تخرج بمصلحةٍ من نقاشها الحاد مع عمّها، وصلت مريم مقرَّ جمعيّتها متحمّسةً، وتُشغِل الساعة تفكيرها. كانت تعلم حقيقة عناد الوقت، حاولت أن تستجمع أنفاسها لاهثةً للقاء يوسف، بعد أن تاب الغياب عن الغياب.

ثم على خُطى مارلين مونرو، السيدة المثيرة التي يصل معدّلُ ذكائها IQ ١٦٧، متفوّقةً بذلك على رئيس الولايات المتحدة الخامس جون كينيدي والعالم الفيزيائي ألبرت أنشتاين، قرّرت مريم أن تجمع ثلاث صفات لا تجتمع إلا بسيدات الصف الأول: الذكاء، الجمال، الإغراء. كانت تمتلك مسبقًا بفِطرتِها الجمال والذكاء، لكن هي الآن بحاجة إلى الثالوث المحرم، الإغراء!

التبرُّج في أحسن الحالات يعني الـــمهمّة الصعبة بالنسبة لمريم، ماذا لو انحصرت خياراتها بالوقوف أمام مرآةٍ عتيقة معلّقة في مطبخ الجمعية؟

www.ibtesama.com/vb

لم يتناسب مستوى المرآة مع طول مريم بالشكل المطلوب، لكنّ حذاءها الأحمر ذا الكعب العالي "الهاي هيل" أسعف الموقف، وقفت مريم أمام المرآة، و ١٢ سانتي متر تفصل أقدامَها عن الأرض، انشغلت بالمشي قليلًا محاولةً أن تُخضع نفسها للتجربة أمام خيالٍ يأخذها إلى الموقف..

... تتخيَّل أن يوسف يجلس هناك أمامها مستندًا على حافة الباب، وهي تتقدّم بمشيٍ متقصع، بحيث تضعُ قدمَها أمام القدم الأخرى بشكلٍ مستقيم، وعلى استقامتها تمامًا ورنَّةُ خِلخَالها تفتن حواس يوسف. هكذا تكون مريم قد تدرَّبت على المشي قبل أن يبدأ العرض الحقيقي.

تعود مريم إلى الوقوف أمام المرآة، مُمسكةً بيدها فاونديشن جورجيو أرماني، غالبًا ما تنتهي من هذا الجزء بسهولة.

تتمالك نفسَها محاولةً ألا تتوتر، فقد حان وضع الميك آب، بالرغم من كون علبة الفور ايفر خاصتها ماركة عالمية، إلا أن العمليّة توتِّرُها. كانت مقتنعة أن التبرُّج شيءٌ صعب، واختيار الألوان في المناسبات المهمّة، مع الأخذ بعين الاعتبار لون البشرة والملابس والتوازن والتناسق.. إنّها تفاصيل مُرهِقة نفسيًا للأنثى! كما أنّ هناك صورة نهائيّة تتوقعها كلُّ أنثى لنفسها، قبل البدء بأيِّ تصرفٍ يخصُّ مظهرها، هذه الصورة تُلزمها أن تقوم بما يجعلها طِبقَ الأصل لها، وأي اختلاف عنها يعني أنَّ هناك خللًا.

www.ibtesama.com/vb

تتابع وضع كحل شانيل بارتباك، خشيّة أن تسيل دمعتها لتستفزّها وتعكّر تبرُّجها؛ لكن كلَّ شيءٍ لا يزال تحت السيطرة. تمسك بمشط ايزادورا لتمرِّره فوق سواد رموشها بحذر، تتوقّف قليلًا لتأمّل نفسها، كما تفعل قبل وبعد كل تصرُّفٍ.. ترسم قليلًا من الآي لاينر بطريقةٍ مُغرِيَة، لكن هذا يكلّفُها كثيرًا من الوقت القليل. تكرّر العملية لأكثر من مرة، حتى تتم بنجاح. أوشكت مريم على الانتهاء من المهمة الصعبة، قليلًا من أحمر بودرة الخدود، وكثيرًا من روج جيفنشي الأحمر سيَفِي بتفصيلة إغراء.

كان عطر مريم يَلتهِم أكسجين الغرفة ليحتلّ الفراغ بكثافةٍ. لم تكن خياراتها مَحضَ صدفة.. لا بدّ من سهم إغراءٍ في كلّ تفصيلٍ، ليُصيبَ كلّ حاسةٍ عند يوسف. ساقا الزُبدَةِ تخرُجان من شقّي شورتها الـ "لو ويست جينز"، والسُرَّة أسفلَها جزءٌ موشومٌ بالحنَّة، والنهدان بلا تعليق يهتزّان بكلّ خُطوة تحت كَت الموسلين والساتان الأبيض، ونحرُها المعتوقُ بسلسلةٍ تحمل لؤلؤةً تتوهَّج، والأكتاف يركبُها موجٌ أسودٌ تنثُره مريم متعمِّدةً إغراق يوسف، تُشعلُ فيه نار الرغبة والقُبُلات على شفة تلهَث أتعَبَها الحِرمان.

تدقُّ السَّاعة، ليتحوّل خيال مريم إلى واقعٍ.. تحت سقف الجمعيّة يختلِيان.

صار يوسف أمام مريم، بعدما استطاع مراوغة أولئك الذين انتدبهم رأفت لمراقبته. كانت مريم تختبئ بخجلٍ قويٍ خلف الباب، بعدما فتحت له باب الجمعيَّة..

www.ibtesama.com/vb

تقدم يوسف إلى الداخل مترًا ونصف داخل شقة الجمعيّة. أغلقت مريم باب الجمعيّة بالترباس، وتأكّدت من ثلاث تكّات بالمُفتاح.

استدار يوسف، ليرى مريم تبتسم بخجل، تُقاوم النّظر في عينيه. ظلّ يوسف صامتًا مرتبكًا، مذهولًا أمام هذا الجبروت. جبروت المرأة الذي هزم الرئيس الأمريكيّ بيل كلينتون أمام مونيكا لوينسكي، وأوقع العداوة على يديّ كليوبترا بين أوكتافيوس وأنطونيو، أعزّ صديقين..

لكن مع مريم، تأخذ الأساطير منحنًى آخر، فجمالها الأخّاذ يبني لا يهدم، فقد نما فلسطينيًا كشجرة الزيتون، وارتوى بالبرتقال وانتشى بالزعتر والنعناع، وتألّق في حضور الزنجبيل والقُرنفُل، وتزيّن بفطرةِ الياسمين الدمشقي..

ظل يوسف واقفًا لا يُبادر بشيءٍ.. كان أقرب وصفٍ لحالته آنذاك بالأبله!

نعم، في الحقيقة يفقُد الرجل نِصف عقلِه أمام امرأةٍ جميلة، فماذا سيَفقد يوسف أمام امرأة يحلم بها منذ أكثر من عشرين عامًا، والآن هي أمامه في أوج تبرُّجها؟

يعيش هذه الثواني صراعًا، يرجو عقلُه بأن يعود، يكاد قلبُه يتوسّل عقله أن يعود قليلًا، وما إن أشفق عقله عليه، حتى عاد جزئيًا لإدراكه، فتذكّر على إثر ذلك أحد دروس الكاما سوطرا..

www.ibtesama.com/vb

من وحي هذا الدرس، صارت كلُّ خلايا جسده تشجّعُه وتقول اذهب احتضنها، احتضنها الآن ولا شيء، إنّه الحب، احتضنها واعتصر أضلاعها، إنّه الحب، حافَظ على أناقته، واحتضنها..

لم يُجفِل خَجَلَها، تقدَّم إليها واحتواها، كان الشعور بالأمان متبادلًا، صارت الراحة تتخلّل إلى أعماق نفسه بشكلٍ سحري، لا يفهمه إلا العشاق من الدرجة الأولى.

قالت مريم بهمسٍ، ويداها تُحسّس ظهره وأضلاعه، وتجذبها بشدة إلى أحضانها، كشعور العثور بعد الفقد: أنا أحبُّك، أرجوك لا تتخل عني مهما حصل..

فرد عليها بلهجةٍ تتخلّلها هالة من الجدِّ والمُزاح والأمان: أتخلّى عنك! قضيت عمري أنتظر هذه اللحظة. سأتخلّى عنك إذا تخلّت الشمس عن شروقها، وتخلّى القمر عن نوره المُستمدّ من أخوته النجوم..

كانت مقطوعة تانجو فلامنكو للفنان أرميك تنتشرُ بهدوء في أرجاء المكان، وتُهدي السكينة للقلوب، وتغذّي الأرواح بالحريَّة والحبُّ والجنون..

ومع الإيقاع، تشابكت أيدي يوسف ومريم سويًا بسلاسةٍ، بعد الحضن الذي أعاد الخجل للجلوس في صفوف المتفرجين.

لحسن حظّهما، وكمكرمةٍ من القدر، كانت صالة الجمعية فارغة من الأثاث لأغراض التجديد. أخذ يوسف بيدِ مريم، وصعد بها بهدوء

www.ibtesama.com/vb

بشكل موازٍ لنظراتهما من الأسفل إلى الأعلى، وما أن التقت عيناهما صوب بعض، حتى ترك يديها ويديه تتنفّسان حُريّة المكان. اقترب منها حدَّ القبلة، استنشق هواء أنفاسِها.. فجُنَّ جُنونه. تقدَّم بها إلى الرقص، مع اشتداد إيقاع الموسيقى. وحين صار في وسط الصالة، حملها وطار بها، كانت اللّحظة الأكثر جنونًا..

ثمّ صارا يخطوان مع الموسيقى خطوةً بخطوة، ونظرةً بنظره، وحركةً بحركة.. كانت مريم تلتفُّ برشاقةٍ حين يُبعدها عن حُضنه وهو لا يزال ممسكًا بيديها، من ثمّ تعود مرّةً أُخرى لحُضنه بأنفاسٍ أشدَّ الحارة..

تلاصق جسدُها بجسده، في لحظة كانت تستند فيها بظهرها على صدره، واضعةً يدها خلف رأسه، تلامس أصابعُها شعرَه.. كانت يداه تتشبّثُ بخصرِها، بعاطفةٍ لا مثيل لها..

أمسك بيدها وبخصرها، واستدار حولها لتتلاقى عيناهما من جديد. نظر إليها بجُرأةٍ، وأعاد على شفتيها أمجاد قُبلتهما الأولى في السجن، يوم زواجِهما هناك.

بدأت شهوته بالتمرُّد على السّير الطّردي مع الحبّ، سارت تتقدّم أسرع مما ينبغي، وصارت أيدي يوسف تتحسّس نهديّ مريم، فتمرّد الخوف عند مريم على النقيض، وصار أسرع تقدمًا من الحب..

فتلعثمت بخوفٍ قائلة: أرجوك، ليس الآن، إلى أن نستقر في بيتٍ واحد.. لا أريد أن أعيش هذه التجربة الفريدة كسرقةِ اللصوص..

www.ibtesama.com/vb

استمع لكلماتها بحرصٍ شديد.. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ، تصرَّف على النحو الصحيح، حضنها وطبع قُبلة على جبينها، وأخذ بيديها لكي يجلسا للحديث سويًا في مكتبها.

أثناء سيرهما في الرواق توقَّفت مريم وقالت له: لا أريد الجلوس على المكتب، سأجلس كما تفعل أنت، هناك في المطبخ سجادة صغيرة، سنفرشها على الأرض ونجلس. أريد أن أحبك يا فلاحي العبقري.

ابتسم قليلًا وقال: هذا الفلاح يعمل على تحضير ماجستير في الهندسة الإلكترونيَّة.

وقال على سبيل المزاح: كفاك عُنصريَّة.

وذهب ليُحضرَها، فأمسكت يديه قبل أن يذهب، وقبَّلتها وقالت أنا آسفة.

عاد، وجلسا يتبادلان الحديث، يعيدان تفاصيل الماضي بتعويذات الذاكرة، يبرِّر لها حينما فعل ذلك ما كان قصده..، فتبرِّر له قسوة ردودها..

مرَّت ساعة على هذا الحديث، ليتَّفقا أخيرًا على أن تنتقل للإقامة في مصر بعد غدٍ، بما أنَّ عمَّها قد أنجز لها معاملة الفيزا مسبقًا، وهو سيقوم بعرض بيته للبيع أولًا، ثم سيُنهي جميع أموره، وسيلحقُها في غضون أُسبوعين على الأكثر. وسيصطحبُها بنفسه بعد غدٍ إلى معبر رفح.

www.ibtesama.com/vb

***

تذهلني تفاصيل قصتنا الأسطوريّة لزمنٍ سيحين. يومًا ما سنحكيها ولن يصدّق حقيقة أمرنا أحد. سنكون شيئًا خرافيًا لأجيال ذاك الزمان. أتذْكُر ألوان ملابسنا الموّحدة، حتّى أننا كنّا نضرُب في عرض الحائط الزيّ الرسميّ التي تفرُضُه مدارس الوكالة علينا؟ كنت أحبُّ هذا التمرُّد القليل، وأحبُّ فكرة الألوان هذه، كيف لهذا القدر أن يهدينا مصادفةَ الألوانِ بهذا الكمّ من الجمال!

اتوق إلى حبّك، إلى حميميَّة العواطف وعواصفها، أُدرك أني أحبُّك حتى الرمق الأخير من الشّبق، لكن ممنوعًا علينا أن نعترف بهذا الشّغف الفِطري. كانت كثرة الممنوع تُضفِي حماسة لهيب قلبي، أما رزانة موقفي كانت تمنعني من أيّ مُغامرة، كنتُ عدوّةً لا مباشرةً للحبّ من خلال عملي، لكن ليس هذا النوع من الحبّ، بل عدوّةً للخضوع والخنوع الذي يفرِضُه الشرقيُّ عادةً على قصص حبّنا..

"كن صديقي... كن صديقي... كن صديقي

ليس في الأمر انتقاصًا للرجولة

غير أن الشرقيَّ...

لا يرضى بدورٍ غير أدوار البطولة"

كانت أُغنية ماجدة الرومي مدرسةً في الحبّ، مدرسةٌ علّمتني أن احبّك بهذا الشكل الأسطوريّ الأنيق، وجعلت من قصة حبّي، قصةً متعاليّةً من كلّ شوائب الشرقيّة..

www.ibtesama.com/vb

هذا اليوم كان رائعًا وباذخ الجمال حدّ الترف!

كأن ستائر السماء انشقّت على مسرح حياتي، وجنتني على صهوة الخيل من هُناك تغازل همس قلبي، وتُعلّمني كيف يُحلِّق سحاب الحبّ ويُمطر فرحًا بلا أوجاع..

كانت تحزم أمتعتَها، ولسانُ حديثِ ذهنِها نثرٌ وشِعرٌ وسَردُ ملاحم عشقيّةٌ.. تستعدُّ للسفر سرًّا في الصباح الباكر إلى مصر، إلى بلاد تخطف الأنفاس، إلى بلاد الشُّعراء والعلماء والفنّانين وصنّاع الزمن الجميل.. إلى النيل والأساطير على جانبيه، إلى صوت السيّدة أمُّ كُلثوم، والعملاق سيّد درويش مجدِّد الموسيقى وباعث النهضة الموسيقيّة في مصر، بل الوطن العربي..

"مصر يا أم العجايب شعبك أصيل والخصم عايب خلي بالك من الحبايب دولا أصحاب القضيّة"

انتهت من حزم أمتعتِها دون أن تُلفت انتباه زوجة عمِّها، وسألت البواب أن يضعَها في السيّارة، على أنّها أشياءٌ لا حاجة لها بها، وستبرّع بها غدًا للمحتاجين الذين يسألون كثيرًا جمعيّتها طلبًا للصدقات.

عزمت على الرحيل من سطوة المُجتمع والأهل، لتبدأ حياةً جديدةً في مصر، ثم راحت إلى غرفتها تُصارع الانتظار والوقت، مهووسةً بالأحلام والذكريات الجميلة، تستذكر ما لم تتوقع أن تتذكّره من أيام طفولتهما.. تارةً تخطِّط في المستقبل، وتارةً تلتفت لأشياءٍ من الماضي كانت لم تُثرها وقتها.

www.ibtesama.com/vb

يوسف أتذكّر ذاك اليوم خلال أولّ أسبوعٍ دراسي؟، كان لديَّ مراجعةٌ طبيّة بعد انتهاء الدوام، كانت سيّارتي متعطّلة عند الميكانيكي، فاستقلّيت سيّارة أجرة لأتفاجأ بكَ في المقعد الأماميّ بالقرب من السائق.. لا أعلم كيف تجرّأت وسألتني: "لوين؟".. ولا أدرك حقيقة ما جعلني أجيب على السؤال دون تردُّد، وبملامحي العنيدة: مراجعة طبيّة، في مانع؟

وكانت هذه أوفرُ اللحظات حظًا لي لأتأمّلك بدقةٍ وحذرٍ، دون أن ينالني انتباهك متلبّسةً بالجرم. وقد أذهلتني حينما صفّفتَ شعرك بكلتي كفّيك وأصابعك متفرّقة.. فعلتَ ذلك مرارًا، وكنتَ تجذبُني في كلّ مرةٍ وبِـــشغفٍ، لأكتشف مؤخرًا أنّها ردة فعلك حينما تشعر بالخجل!

رائحة فساد عمّي نبيل كانت قد أوشكت على الانتشار، فالتراكمات تُزيد الطين بلةً، هذا ما حفّزه على إطلاق سراحك. كان بحاجةٍ لقليل من الخير ليحافظ على شيءٍ من ماء وجهه الذي أوشك على النضوب مقابل الكثير من الشرور التي أشُك أنّ لديه صِلةً بها. لا أدري، لم أكن أهتمُّ بأعماله، كنت أذهب لمكتبه لبضع توقيعاتٍ يحتاجها مني في شئون العقارات التي يملكها، والتي يسجل أكثر من نصفها باسمي.

لا أدري، ولا يهمُّني ولا يعنيني، أنا الآن معك من جديد.

تفحّصت جسدها من الرأس حتى القدمين، وتحسّست مكان القُبلات.. وحدّثت مرآتها قائلة: اشتقت إليكَ أسرع ممّا توقعت!

www.ibtesama.com/vb

اختارت مريم أن تجمع بقايا حياتها، وأحلامها. وآلامها المبعثرة من جديد، وأخذت على عاتِقها المُغامرة. كان لديها الإرادة. وكأنّها طفلٌ لا يكفُّ عن الألمِ والبكاء حتى يصل لمبتغاه..

لقد انتظر قلبُها بما فيه الكفاية، ومنذ غدٍ سيبدأ موسم الحصاد..

ذهبت مريم متأخِّرةً إلى النوم، كان النظر إلى الساعة يطرد هالات النوم من عينيها، لكنّها في النهاية كتبت رسالةً إلى عمِّها، وضعتها على المكتب، ثم خلدت للنوم.

***

في الصباح، يوسف يوصل مريم لمعبر رفح

عند الصباح، استفاق النهار على حفيفِ الوداع..

بدأ حُلم يوسف ومريم يَنثر بذوره على الأرض، تحت وقع السماء اللازورديّة، على أمل أن يكون الحصاد كأهداب الغيوم فوضويًا حرًا، جميلًا، أو كنجمةٍ مضيئةٍ في وسط ضباب الليل المُظلم.

كان يوسف لا يزال ينتظرها داخل سيّارةٍ استأجرَها عند مُفترق أنصار في وسط القطاع، كي يوصلَها إلى معبرِ رفح. وصوت فيروز حاضرٌ معهما، الصوت الوحيد الذي لم يتخلَ عنهما، يرافقهما منذ الصغر، بهالتِه الملائكيّة، وتلك الكلمات الرحبانيّة التي تُداعب إحساسهما، كصبيَّةٍ تُلامس بيديها خدَّ حبيبِها لتحصُف قلبه..

في غزّة، تبثُّ كلُّ محطات الإذاعة في الصباح أغانٍ لفيروز، والقنوات الدينيّة أو التابعة للتنظيمات، تَستفتح يومها بآياتٍ من القرآن الكريم.

www.ibtesama.com/vb

لم تكن مصادفةً سماعُ صوت فيروز من راديو السيّارة. لكنّ المفارقة كانت في الأغنية التي داهمت قلوبَهم، وعلى أثرها صارت أحداقُهم تغرّد مع فيروز حديثًا صامتًا:

"لما عالباب يا حبيبي منتودع

بيكون الضو بعدو شي عم يطلع

بوقف طلّع فيك وما بقدر احكيك

وبخاف تودعني وتفل وما ترجع"

أبدع جوزيف حرب في كتابة كلمات هذه الأغنية لفيروز حد الإعجاز العاطفي، رَسمَ كلّ ما يحتاج الاثنان أن ينطُقا به في أغنية، تشعرُ هنا ليس بكونِه مجرَّد كاتب، بل نحّاتًا ينحت بالإزميل الكلمات حرفًا حرفًا..

***

أعدَّت زوجة نبيل سُفرة الإفطار لزوجها وأبنائه الثلاثة، محمد ومحمود وأحمد. كانت عابسةُ الوجه شيئًا ما، جلسوا جميعًا إلى السُفرة، لتناول الإفطار..

افتقد نبيل وجود مريم، فسأل زوجته عنها، قالت له نائمة، ثم لاذت بالصمت، وبدت الأمور عاديَّة مع بعض العصبيَّة تحيط بمُفرداتها..

سمعت صوت السيّارة التي فرزها العقيد لتقلّ أبناءهُ يوميًّا إلى المدرسة، أعدَّت الساندويشات، وقالت لأحمد أصغر أبنائها من حيث

www.ibtesama.com/vb

الدقائق: سوف تُخبرني إذا لم يأكلوا الطعام، لا تَخفْ منهم أنت حبيبي..

كانت تشعرُ بانقباضٍ في قلبها.. شيءٌ من الخوف زارها، فحتى وقتٍ متأخّرٍ كان أطفالُها الثلاثة مُعرِضون عن النوم يلاعبونها وتأخذها براءتُهم وضِحكتُهم. كانت مُلحّةٌ عليهم بالنوم، لكنّها أمام براءتهم فشلت..

كان زوجها قد تأخّر، وغرفة مريم مُغلقة.

قال لها محمود: لا أريد الذهاب للمدرسة، أشعر بالبرد.

فاحتضنتهُ وأحضرت له مِعطفًا، وقالت: أنت بخير، لا تتحجَّج بالبرد. كان بيننا اتفاق السهر مقابل الذهاب إلى المدرسة. هل ستخلف وعدك معي؟

رد أحمد المشاكس، وأكثر أبنائها ذكاءً: أمّي، لقد حفظت درس التاريخ كاملًا، واليوم سآتي بدرجة عشرة على عشرة.

نظرت لمحمد الذي كان مُنشغلًا بأناقته، يمشّط شعره، ويُهندِم ملابسه، فتجاهل نظراتها وذهب لوالده، وقال له: بابا أنا سأصبح مثلك، أعطني قُبلةً والمصروف!

ضحك العقيد نبيل وقال: أنت حبيبي.

وسأله: من تحب أكثر، أنا أو أمك؟

فأجاب: ذلك عائدٌ إلى كم ستعطيني مصروفًا.

www.ibtesama.com/vb

فقال والده: أنت ستصبح رجل أعمال جبار!

فرد قائلا: المصروف يا نبيل!

نهرته أمُّه وقالت: لا تقل له نبيل قل له بابا

فقاطعها نبيل وقال: لها اتركيه على راحته، هذا الولد ابني المدلل..

وأعطاه مصروفه، وأعطى احمد أيضًا، وقال لمحمود تعال لتأخذ مصروفك، فتحرك بكسلٍ وكأنّه مُجبرٌ لا مفرَّ له من الذهاب إلى المدرسة، فأرغمه أخوته على الذهاب معهما..

قام السائق بالضغط على زمور السيّارة كي يأتوا بسرعة، أخذوا حقائبهم وذهبوا.

كان نبيل يستعدُّ أيضًا للخروج إلى العمل، فاستوقفته زوجته وأعطته ورقةً وقالت له:

– دخلتُ في الصباح لكي أوقِظها، وجدت هذه الورقة على مكتبها!.. مريم سافرت إلى مصر، وتزوَّجت من يوسف!

قرأ الرسالة ثمّ مزّقها، واستشاط غضبًا يسبُّ عليها بأقبح اللعنات..

– كيف تجرؤ على ذلك؟! سأكلّم إدارة المعابر، سأمنعها من السفر.

www.ibtesama.com/vb

– وأسرع بالاتّصال بمدير المعابر هناك، ثم حدّثه بالتفصيل عن مريم، وسأله إذا ما كانت هناك، وهل يمكنه أن يمنعها من السفر..

في هذه الأثناء، سمعت زوجتُه إطلاقَ نارٍ قريبًا من منزلها في الساعة الثامنة، فتوقّف قلبُها. لكنّ نبيل بقي مُنشغِلًا بمكالمته، لم يهتمّ كثيرًا لأصوات الرصاص المُنهمر، فمنْ يعشْ في غزّة يَعتدْ على هذه الأصوات، ولا تثيرُ غرابَته.

لحظاتٌ، ثم عاد مدير المعابر إلى العقيد وأخبره أنّه لم يعدْ بإمكانه أن يمنعها، فلقد أصبحت مريم في الجانب المصري الآن، وقد خُتِمَ جوازها بختم الخروج، وغادرت الصّالة الفلسطينيّة، وهي الآن في الصالة المصريّة عند الجانب المصريّ..

تناقل الجيران في هذه الأثناء أخبارًا تفيد بأنّ ثلاثة أطفال قد قُتِلوا، فسارعت زوجة العقيد للاتّصال بالبوّاب تسأله كي يستطلِع الأمر.. كانت ترتجف، بينما نبيل يُحاول أن يفعل ما في وسعِه كي يمنع مريم من السفر..

بعد أكثرِ من عشرين دقيقة، عاوَد البوّاب الاتّصال بزوجة نبيل من موقع الحادثة، ليخبرها ما حدث بارتباكٍ وتراتيلَ رعبٍ من هول الواقعة:

جاءت سيّارتان من نوع سكودا وأطلقتا مئات الطّلقات النارية من أسلحة رشّاشة وقتلت ثلاثة أطفال.

www.ibtesama.com/vb

ثمّ ابتلّ ريقَهُ وقال: البقيَّةُ في حياتك، محمد ومحمود وأحمد قد استشهَدوا!!

صرخت الأمُّ الثكلى صرخةً مدوِّية، فيها قهرُ الدنيا:

– أولادي ماتوا، نبيل أولادك ماتوا، أولادك ماتوا، ماتوا يا نبيل، ماتوا ولادك..

أُغميَ عليها، وفقدت الوعي.. هروَل نبيل إلى الخارج وأخذ سِلاحه، يصرخُ بأعلى صوته: أولادي.. أولادي.. أولادي..

وعندما وصل إلى مكان الحادث، كان منهارًا بكلِّ ما تعنيه الكلمة. حاول الناس أن يمسكوا به وهو يصرخ:

– أولادي، ليه أولادي، أطفال، يا ريتني أنا، يا ريتني أنا، اقتلوني ورجعوا لي ولادي، ليش يا رب، أولادي، حسبي الله ونعم الوكيل..

هزَّت هذه الجريمةُ المدينة، وأصابت الرأي العام بالصدمة والذهول. روَّعت هذه الجريمة الناس، لم تشهد غزَّة فاجعةً كهذه، كانت هذه الفاجعة نتيجةَ حالةِ الفلتان الأمنيِّ المروِّعة، والمشاحنات السياسيَّة والتراشق الإعلامي..

توشَّحت المدينة بالسَّواد، اختلطت حقائب الأطفال بالدماء والأشلاء، وتبعثرت الكتب ومسحوا درس التاريخ والتاريخ من الأطفال. كانت آثار الرصاص واضحةً على السيَّارة، بعدما اخترقتها

www.ibtesama.com/vb

ومزّقت الكراسي وحقائب الأطفال، وبُقع الدماء تُرى من على بعد أمتار..

توقّف الزمان في لحظة سواد، لحظة انقسامٍ قاتمة..

" وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ "

على بُعد أمتارٍ قليلة من مياه البحر، في مدينة العريش المصرية، يقع الشاليه الذي تقيم فيه مريم..

أشجار النخيل هناك تقف شامخةً، تختلط خُضرتها مع زُرقةِ البحر، تفصل ما بين الشاليه وأمواج الشاطئ.

تستطيع التحرّك بسيّاراتك بسهولةٍ في هذه المدينة، لا كمائن، لا كبائن، ولا وجود إلا للحياة، تنتابُك هناك هالةٌ من الهدوء والمحبة والسكينة، تُخرِج منك أصدق ما فيك. العالم هناك منفصلٌ عن المدنية، حيث تَنفض أصوات الموج عنك الزُحام..

استطاعت مريم أخيرًا أن تحصل على خطِّ اتّصالٍ بشبكة الإنترنت. استعدَّت للخروج إلى الشاطئ، أحضرت اللاب توب الخاص بها، وخرجت من الشاليه..

تمشّت لدقيقتين فقط، حتّى صارت أمام الشاطئ. لم يكن هناك سوى مجموعةٍ من الأطفال يمازحون الموج، وتفوح من قلوبهم روحُ الحياة المصريّة، روحٌ تصيب قلبك بحالةٍ لا إراديةٍ من البسمة..

www.ibtesama.com/vb

ارتدت مريم نظّارتها الشمسيَّة، وجلست تحت خيمةٍ بدويَّةٍ صغيرة سقفها من سعف النخيل، نُصف جسدها في الشمس، ونصفه الآخر يحظى بخطوطٍ متقاطعةٍ من الظلّ والنور المتسلسل، عبر فراغات ذاك السقف.

فتحت اللاب توب، تفقّدت بريدها، كمٌّ جنونيٌّ من الرسائل..

ارتابت من هذه اللحظة.. كانت تشعر بشيءٍ خفيٍ خاطفٍ يوخزُ قلبها، الكثير من رسائل التعزية!

كانت مشتركةً في الكثير من القوائمِ البريديَّة للمواقع الإخباريَّة المحليَّة.. وكان أول عنوان أصاب مدامعَ عينيها:

"جريمةٌ تهزُّ قِطاع غزَّة.. أطفال العقيد نبيل، بأيِّ ذنبٍ قُتلوا؟"

صار جسدها يرجف بشكلٍ لا إراديٍ، فتحت الرسالة، وخافقها يرتعش كجناحي طائرٍ طنان!

صار لسانها يتلعثم حين قرأت الخبر، نزلت إلى أسفل الخبر وشاهدت صور الجريمة، صور الأطفال الثلاثة أبناءُ عمِّها، صورٌ من مسرح الجريمة، صورُ أشلائهم، صور سواد المدينة، وصور الجنازة..

"محمد، أحمد، محمود" صار لسانها ينطق أسماءهم وهي تجهش بالبكاء. وقفت من مكانها وانكبَّ جهاز الحاسوب على الرمل، صارت تصرُخ "حبايبي"، وتلطُم وتجري على الشاطئ، تدور لا تعرف إلى أين تذهب، وتضرب بيديها على صدرها، وتنادي: محمد، حبيبي محمود، حياتي أحمد، قتلوهم، قتلوهم أولاد الحرام..

www.ibtesama.com/vb

لا تدري ماذا تفعل، تُناجي الله "ليش يا ربي.. أطفال يا ربي"، تصرخ بأعلى صوتها "بدي موت"،"بدي ألحقهم"، "موتوني"...

أحسَّت وكأن أخطُبوطًا يعتصِرُ رئتيها، ثم وقعت على الأرض، مغشيًا عليها..

سمعَ يوسف بخبر مقتل الأطفال الثلاثة. أتاه الخبر في مقتله. صارت يداه بصلابةٍ تتحسَّس جِيدَهُ، يشدُّ بها ضيقَ نحرِه، يعرف هذا الشعور جيدًا، لقد أحسَّه يومًا.

كان وقع الخبر على يوسف مرهقًا نَزِقًا، أحكم شعور الفَقدِ قبضته وحاصره من كل منفذٍ. صارت أفكارُه المتحلّلة تعيد تكوينها الخيميائيّ، كل شيءٍ يعود، الحزن والضعف.. انثالت أحلامه بسرعةٍ، وغدت حُطامًا متراكمًا، كبرجٍ أرسلته الطائرات الإسرائيليَّة إلى الجحيم.

الشعور بالفقد سيئٌ جدًا، يأتي ويصحب معه صراعًا بين أسوأ المشاعر، يُجرِّدك من أيِّ أمل، يجعلُك حافيًا من أيِّ معالمٍ للحياة..

انكبَّ على هاتفه، يُحاول الاتّصال بمريم، صاحبةُ الهاتفِ المُغلق دائمًا، والكارهةُ كليًا لكلِّ وسائل الاتّصال الافتراضيَّة.

يتلهَّف ويتمتم راجيًا من الله ألاَّ يكون هاتفها مغلقًا، ملامح التّوتر اتَّضحت على جسده، ولا شعوريًا صارت يداه ترتعشان.

" الهاتف الذي تحاول الاتّصال به خارج التغطية "

www.ibtesama.com/vb

مع هذه الأسطوانةِ التي أجابت بالنيابة عن صوت مريم، الذي يحتاجه أكثر من أي شيء، تحول الرعب والقلق إلى واقعٍ ملموس.

كانت مريم تهوى هذه الحالة من التشويق، جعلُ الجميع في حالةِ قلقٍ عليها، وكان بالطبع يوسف ألذُّ من تُمارس عليه هذه الحالة.

للتوِّ عقد موعدًا مع سمسار أراضي، لا يعرف كيف يتصرف، هل ستعرُج مريم عن خِطتِهم؟ هل يستمرُّ في بيع أملاكه الصغيرة والانتقال للعيش في مصر؟ أو أنَّ القدَر جاء مُحمَّلًا بغبار الظروف ليبدِّد الطريق ويعيده إلى ظلمته؟

يجلس يوسف مقرفصًا في ركنِ الرواق يحدِّث نفسه:

إنِّي أنهيك كلَّ شيء، لا وقت لديَّ، لقد شرعت بإجراءات بيع البيت، لقد سحبت أوراقي من الجامعة، أنهيتُ كلَّ ما يربِطُني بهذه المدينة.

حقًا لا أعرف التصرف، هل أحزن على نفسي، أو على دماءٍ انسكبت من صُلبِك؟

عقلي أوَّل موتي، يفيض بي أوجاعًا ودموعًا، يدمنُ أن يعيدني إلى مُستنقع الكآبة القُرمزيِّ. كيف يا مريم أنت بهذه القسوة؟ يجب أن نتحدث، ينبغي عليكِ الآن أن تقولي لي ماذا أفعل، أنا أشعر بقمَّة العجز يا مريم، قمَّة العجز..

www.ibtesama.com/vb

تركيزٌ، توكيزٌ، تركيزٌ، صار يوسف يردِّد هذه الكلمات وهو يستنشق الهواء ببطءٍ، ليشرع باتخاذ قرارٍ ملحميٍّ في عمق خاصرة دربه:

لقد فاضت بيَ الدنيا بما يكفي،، صارت ترنّحني بالاتجاه الذي ترغب.. لن أتوسّل رحمة أحدٍ بعد اليوم، وإنّني لأفضّل الرحيل على أن أسلك طريقًا يستوقف حياتي عند صراعٍ واحدٍ، صراعٍ مميتٍ بين ضعفِ عقلي أمام قلبي، وقسوة قلبي أمام عقلي..

أمتعبةٌ أنتِ يا مريم؟ أمنهكةٌ أنت يا روحي؟

سأبيع البيت وأرحل، فإذا ما بقيت يا مريم على عهدنا، أهديتُك بلا تردُّدٍ عمري، وإذا ما عُدتِ إلى البَينِ الذي أدمنتِ طرقَهُ على وجعي، فأنا راحل من هذه البلاد، التي كلُّ ما فيها صار يذكّرُني بك، كلُّ ذرةٍ من تفاصيل الحياة في هذه المدينة مرتبطةٌ بك..

لقد مللتُ حقًا ان أظلّ على الدوام في حالة انتظار، لقد صَبرت كثيرًا، ولست نادمًا على شيء، والآن عليك أن تختاري البقاء أو لا..

لكن أرجوكِ يا مريم ابقِ على ذمّتي، فأنا أُحبُّك، وأعرف أنّك ستتخلين عنّي عمّا قريب..

وظلّ يوسف على عهد الرحيل، وشرع في استكمال اجراءات بيع بيتِه، وإنهاء كلّ ما يربطه بالمدينة، ليبدأ حياةً جديدةً في مهجرٍ محطتُه الأوّليّة مصر..

***

www.ibtesama.com/vb

عند الظهيرة، كان صوت الأذان يأتي من بعيدٍ متألّقًا مع صدى السكون، بعيدًا في عمق الشيخ عجلين، في بيتٍ تشعرُ بأنّه أقرب للحدود من البحر..

يحيطُ البيت من كلّ الجهات، مزارع، وشوارع رملية، وفوضى العُشب..

تستطيع من شدّة السكون، سماع ضجيج السيّارات المتردّد من شارع البحر الذي يبعد ربّما مئات الأمتار، كانت هذه صبغةُ أمانٍ يكتسي بها البيت، تستطيع الهروبَ قبل أيّةِ مُداهمة مفاجئة..

مرت بضعةُ أيامٍ على حادث اغتيال الأطفال الثلاثة أبناء العقيد نبيل، وبدأت ملامح مصطفى يأكلُها الأرق، وتُجعّدُ قلبه، وترهّلت رُوحه..

لم يحلم في ليله.. لا تزوره رؤيا ولا كابوس، ينام على نفسه كجثةٍ مُهملة.. تآكل عقلُه، أصاب هدوءَه الشوك، ينفجر من مرور ذُبابة..

يجلس مصطفى على التُراب قرب مسبحٍ خالٍ من الماء، مُهمل..

يُرافقه في هذا البيت بِضعُ أسلحة، ورفيقه أبو صهيب أخو المغدور به. كان رفيقُه لا يشبه الماضي، ملامح الغضبِ التي كانت تكتسي وجهَهُ، طَفا عليها الرضا..

مُصطفى الآن يستطيع البقاء مُحدِّقًا بنظرِهِ للسماء أكثر من ٦ ساعات دون أن ترمُش عيناه، ودون أن يحرّك عُنقه.

www.ibtesama.com/vb

جالسًا كالقُرفصاء على أريكةٍ قديمة، مطرَّزةٍ بالديباج الخمريّ، ومحشوَّةً بالقطنِ المصريّ.

لا يفكِّر، يستحضر المشهد الأخير من الجريمة..

على قلقٍ، على أرقٍ، على توترٍ، على وجعٍ، على ألم..

تورَّط حدَّ الثمالة، تُهمةٌ لا توبةَ لها، هروبٌ بصبغةٍ سرمديَّة، ضميرٌ أعلن الحرب على صاحبه..

خرجَ أبو صهيب من الباب الخلفيّ للبيت الذي يُطلُّ على المسبح المهمل والحديقة الرثَّة، حيث يجلس مصطفى..

كان يحمل في يديه صينيَّةً من البلاستك، عليها فُنجانان وإبريقُ شايٍ نحاسيٍّ قديم، تقدَّم صوب مصطفى مُبتسمًا بحذرٍ وقال: أعددت لي ولك الشاي، يجب أن تخرُج من هذه القوقعة التي تحبس نفسك طوعًا بها، مرَّت عدَّة أيامٍ وأنا معك، لم تتكلم خمس كلمات على بعض. بدأتُ أشكُّ بأنَّك أُصبت بالبكم!

لم يحرك مصطفى رأسه، وبقي كما هو غير آبه بما يقوله رفيقه، استمر أبو صهيب الحديث:

- نحن لم نتعمَّدُ قتل الأطفال، هو سوءٌ في تقدير الوقت، القتل الخطأ واردٌ في الدين.

ثم تلا الآية الثانية والتسعين من سورة النساء المتعلقة بأحكام القتل الخطأ:

www.ibtesama.com/vb

" وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إلا خَطَئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خطَئًا فَتحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ.. "

أدار مصطفى رأسه قليلًا، ثم رَمَقَهُ بنظرةٍ تختلِطُ فيها السُّخرية مع القهر، ثم عاد مجددًا ليحدِّق في السماء.

بدأت عروق أبو صهيب يلوِّنُها الغضب شيئا فشيئا، اشتدَّت أحباله الصوتيَّة، وصار صوتها جديًا أكثر، وأعلى قليلًا:

– هذا ما أنت عليه، لا تنطق، تحمِّلني ذنب مقتلِهم، ونسيت أنَّ والدهم قتل أخي، وما زال حيًّا يرزق، وربما الآن يتمتَّع بفرصةٍ أكبر من التعاطف، ولقد تحوَّل إلى بطلٍ قومي. كانت رغبتك منذ البداية ألاَّ نُعلن عن مقتله، ولم تشأ اتهامه. دُفن أخي بغير جنازة، بغير مشيعين، وأنت الآن تعذِّبني بصمتك، وكأنَّ ليس لي من أخٍ قد قُتل، وأنا من قصدتُ عن عمدٍ قتل الأطفال.

نحن على حافة انهيار، إمّا أن تُمسك بزمام الأمور أو تضيع كلُّها. رغم خطأ القتل، إلاَّ أنَّ الكثير من عناصر السُّلطة صارت تخشانا.

دعني أُعاتبك، ربما أنت لا تشعر بشيءٍ من حُزنِي الأزرق.. لقد قتلوا أخي، وأنت لن تفهم ذلك، أنت مجردٌ من إحساسك الأخويّ، وأكاد أن أجزم أنّك لم ترَ أخاك منذ سنين، والآن أخوك يذوق ويلات الحياةِ بسبب موقعك التنظيميّ. كم مرَّة ابتزوك بأخيك، ولم تأبه؟

لا أريد أن أقسو عليك بالحديث، لكن لا تقسُ عليَّ بالصمت، فأنا فقدت عزيزًا، وأنت لا عزيز لديك، لذلك لن تفهم وجعي،

www.ibtesama.com/vb

وستأخذ الأمور بظواهرِها، وظواهرُها دائمًا خدّاعة.. لا تحمّلني ألمًا لا طاقة لي به.

بدأ التوتُّر يملأ المكان، يستنشقه مصطفى، ويزفره رفيقه أبو صهيب، وتزداد مع صمت مصطفى حدة القسوة في حديث أبي صهيب.

– لم تكن غايتي قتل أبنائه، كان هو ثأري الذي لم ينتهِ، القتل الخطأ وارد وشفيعه الديّة، سأرمي للعقيد ديّة أبنائه واقتله، هكذا يرتاح أخي في قبره..

انتابت مصطفى موجة غضب تدفقت مع دمه، على إثر تكرار أبو صهيب التلاعب في تفسير الآية القرآنية، ومحاولته تبرير القتل من منطلق ديني. صار أبو صهيب يمشي ذهابا إيابًا على رصيف المسبح المتهالك، ويتمتم بكلامٍ غايته استفزاز وتوتر مشحون يكسر صمت مصطفى السرمدي، تارة يعاتبه، وتارة يبرِّر الجريمة بالالتفاف في تأويل المعاني، وتزيين ملامحها..

صار التوتر أشبه بإعصار.. وما إن اقترب من مصطفى، حتى انفجر صارخًا في وجه أبي صهيب:

– لا تلعب دور القاضي ونحن جناة، توقّف عن تحريف الدين، توقّف عن ممارسة قذارتنا السامة، أنا لست ندًا لك، أنا الحقيقة التي لا تريد أن تراها، أنت مجرم، وأنا مجرم..

www.ibtesama.com/vb

كان صراخ مصطفى كمثلِ الرصاص الذي تراشق من كل صوب تجاه حديث أبي صهيب، فتلك الجريمة جرّدته من الحماقة والعنجهيّة. صار يشعر ببؤس عقله، وبعمقٍ في أغوار نفسه، وصار يرى نفسه متورّطًا في شبكة أفاعٍ متشابكة لا حل لها..

قاطع صراخه أبو صهيب بصراخٍ أكثر حدّة:

– أنت تتهمني بالإجرام، وأنا من فقدت أخي. أنت لا تفهم، مجرد حمار، يسوقك حمار آخر، طفح بي الكيل منك ومن غبائك. أنت تقرفني جدًا يا مصطفى، أنا أكره أن أكون معك..

ثم أخرج سلاحًا من جيبه، وصوّبه تجاه مصطفى مباشرة..

***

"لا أحد يعلم الغيب" هذا هو قانون الحياة، هي حكمةُ الربّ الأعظم، فالإنسان شغوفٌ بطبيعته، وحدها المجاهيل هي التي تثير شهوة فضوله ليسرع باحثًا عن مستقبلٍ يليق بطموحه والأمنيات اللا منتهية. متاهة الاحتمالات هي واحدةٌ من ألعاب القدر التي لا يملك الإنسان فيها حقّ الاختيار. أنت مُجبرٌ على اللعب، دون مقدمات ستكون مسيّرًا بدخول المتاهة، مخيّرًا أمامك فوزٌ أو خسارة.

لم أدرك أبعاد هذا الجنون الشيطانيّ، حتّى لك كان سيّدُ فكري ذاك الوقت، غيّبتُ بمحض إرادتي عقلي، وأنا ضحيّة وأنت ضحية في الخيارات التي لا شأن لنا فيها.

www.ibtesama.com/vb

لا أعلم إذا كان أخوك متورّطًا في دم أبناء عمي أو لا، لكن في كلتي الحالتين لا يمكن البقاء مع شُبهة، ولا يمكنني أن أستمر. سأتذكّرك الآن بالدم لا بالحب..

كنتُ أجهّز نفسي من اللا شيء إلى الكل.. لأجلك. دائمًا تذكّرني أنت بالكلّ والكمال. لقد اخترت لكَ قمصان نومي بحرص، تعبت في اجتهاد خبايا ذوقك، اخترتها بألوان الربيع كونه موسم العسل، اعتقدت أنّ الأيام التي سنقضيها معًا ستحلو بكلّ هذه التفاصيل. لم أعلم أن هناك لعنةً ستحوّل ربيعي إلى خريفٍ باهِت، ظللت متفائلة إلى أن سمعت خبر الجريمة متأخرة، تأمّلت وجعي وخيبة التوقعات، اجتاحني التشاؤم والضعف والانكسار.. لم أعلم أن حظّي العاثِر مُتنقّلٌ يطير معي من بلدٍ إلى بلد، وسيلحقُني مهما حاولت منه الهروب.

الموت هو سيّد كلّ شيء، والحبُّ سيّد العاطفة وأحيانًا المنطِق.

قَتلُ أبناء عمي اعترض الكل.. هل سأنسى؟، ماذا أفعل ليبرد قلبي الغارق بالذنب، كلُّ حاضري تكسّر، حاضري الذي لطالما حلمت به وخطّطت له مليًّا، وتمسّكت لأجله بكلّ تباريح الأحلام، تشبثت بالأمل، لكن لا محالة من الثالوث الملعون.. لا محالة.

"أن نخسر التوازن من أجل الحبّ جزءٌ من حياةٍ متوازنة"

أتذكّر هذه العبارة جيدًا، ظلّت عالقة في ذاكرتي من أحد الأفلام، لها قدرةٌ هائلةٌ في أن تصبّ واقعًا استثنائيًا أعيشه، واقعًا يلجُم حظّي

www.ibtesama.com/vb

العاثر أكثر، حظّي العاثر بما فيه الكفاية.. أظنُّ أنّه لم يحتجْ يومًا لمؤامرات الحبِّ والحرب، لقد كان متهالكًا بما فيه الكفاية.

أنا أحتضر يا يوسف أمام هذا الحب المزمن، وينتهكني الندم كـــــورمٍ خبيث. أنا بحاجةٍ إلى قُربك، يوسف أسعف تدهور حالي، نيران ضميري تشتعل أكثر.. لقد فات الأوان، لن يُجدي شيءٌ نفعًا.

ها نحن الآن نفترق، نفترق إلى أبدٍ جديد، نفترق مرّةً أخرى للمرّة الثالثة والرابعة. لا أدري هذه المرّة هل هُناك من عودةٍ لهذا الفراق، أم أنّ الدم سطرُ نهايةٍ سرمديةٍ له.

لقد تواصلت مع المحامي الخاص بي في غزّة، بمجرد قراءتك لرسالتي هذه فأنت حر، أعني أنّك لست بعد الآن زوجي، لقد طلّقْت نفسي منك، وطلّقَتْني نفسي وروحي.

لا أدري ماذا فعلت بنفسي، فأنا الآن المُطلّقة العذراء، إلاّ من قبلةٍ وحضنٍ لن أنساهما في عمري.

أحبُّك يوسف، أحبُّك بقدر أوجاع المخيم، بقدر هذا الحظّ العاثر، أكثر من كلّ آلام فلسطين، وأكثر من كلّ سكنة خوفٍ التابتنا، أكثر من أيِّ شيءٍ، أكثر من حُرقتي وأنا أكتب الآن..

اريد أن أبكي في حُضنك يا يوسف، لم أشعر يومًا بأنّي ضعيفةٌ كالآن، ولم أشعر بأنّي أحتاجك قدر الآن.

أشعر أنني خذلتك من جديد، أنا لا أصلح للحياة يا يوسف، أنا صحراءٌ جرداءٌ تلفظُ حتى الماء، وأنت اغدقت عليّ بالماء لأعود

www.ibtesama.com/vb

للحياة، لكنّي تجاهلت ماءَك، تجاهلت تعبك.. أنا أحبُّك، أرجوك الآن لا تتركني، أرجوك ابتعد عنّي!

أعيش يا يوسف موتًا من نوعٍ آخر، أعيش ولادة موتٍ يُشبه الرعد، مفجعًا مخيفًا عشوائيًا، يهدُّ ليل عافيتي.. موتًا مرادفًا للظلام، ظلامٌ لا شروق له يتسلّلني بهدوءٍ، يقضي عليَّ ويتركني أجفُّ، ليعود ناصبًا فخّه.

موتٌ يسبق الموت الأخير، يسبق العشاء الأخير، أعدُّ له أغراضي، ذكرياتي، أحلامي.. أعلم بقدومه، وما عليَّ سوى الانتظار..

موتٌ يرنُّ صوتُه الكئيب المريب في ذهني، يقول لي دائمًا الوقت ينفد، أقول له الدمع نَفد!

أنا آسفة، أعرف أنّك صَبرت أكثر من طاقة البشر على الصبر، وأعترف أنّي كُنت مذ نعومةِ أظافري أتلذّذ بتعذيبك، لكن أُقسم لك أنّ تلك لم تكن غايتي.

حِرصُك الدائم على البقاء على عهدِ قلبك قربي كان أجمل شعورٍ ألتقطته، دائمًا كنت أفعل أيَّ شيءٍ كي أجدِّد هذا الشعور في قلبي، في كلِّ الأوقات كنتُ أرحل بإرادتي، لكن هذه المرَّة أرجوك سامحني، هذا الوداعُ رغمٌ عني! آسفة!

بعد اللحظة التي تقرأ فيها رسالتي هذه، لن تستطيع الوصول إليّ، سأختفي من حياتك تمامًا، لكنّي سأبقى أُراقبك من بعيد لأطمئنَّ عليك دون أن تشعر.

www.ibtesama.com/vb

سأعود إلى جانب أسرتي، فهم الآن بأمسِّ الحاجة إلى وجودي بجانبهم، لقد كنتُ ابنتهم على مدى وقتٍ طويل، والآن بالنسبة لهم، أنا ابنتهم الوحيدة.

كان هذا آخر ما دوَّنته مريم ليوسف، وقضت بعدَه الليل تجهش بالبكاء حتَّى ساعات الصباح. وعند الساعة الثامنة صباحًا، جاءَت سيَّارة أجرة لتاخذَها إلى معبر رفح، ثمَّ إلى غزَّة..

***

كانت مريم قد أرسلت الرسالة ليلة عودتها لغزَّة، ثم بعد إرسالها أقفلت بريدها الإلكتروني وأيَّ وسيلةِ اتّصال كان يمكن ليوسف أن يتواصل بها معها. الآن في وسعِه أن يقرأها، لكن لا يُمكنه الردّ عليها، وذلك كان كافيًا لأن تزفَّ عيناه دمعةً، كدمعةِ الأنثى على وطنٍ ضائع في المهجر، فقرَّر أن يكتب رسالةً لها في تدوينةٍ ينشرُها على الإنترنت.

كان على يقينٍ أن مريم ستقرأها، فالحبُّ مثل فلسفة المجرم والجريمة.. سيكولوجيًا، سيقوم المجرم بعد فترةٍ قصيرةٍ جدًّا بزيارة مسرح الجريمة، فماذا إذا كانت الجريمة هي الحب؟

إلى التي لم أعد أقوى على ذكر اسمها بعد الآن:

لكلِّ الظروف الساقطة، ذلك الوقود الذي يدفع مِصعد الفُراق أسرع، سُحقًا أيُّها الجمعُ القذر.. قذارةٌ تطوِّق العنق، أفكارٌ تتقلّب على نارٍ هادئة، تقزُّزٌ لا يُسعفه مجاز..

www.ibtesama.com/vb

هذا ما فعله رحيلك المُرصَّع ببشاعةِ أشياء لا دخل لي فيها. جدِّفي بشراعك بعيدًا عن محيط حُزني، فالمحيطات لا تحمي مغفَّلي البحر..

لن تستطيعي أن تتحمَّلي قُبح المفردات، قد قلت، والآن أسأل..

ما هذا الضعف الذي أعيشه، أنا عاجزٌ عن أن أقسو عليكِ أكثر، أنا الحضيض الآن.

كنت على حافة الهاوية، والآن هويت إلى قمتها..

كيف تحلّين للظروف امتصاص قلبي؟ كيف تسمحين للذباب بتشويه العسل؟ وبأيِّ حقٍ تتخلين عني؟ لماذا اختفيتِ فجأة؟

لم تعطني فرصةً لتتحدث؟ كيف تنفردين لوحدك بقرارٍ يخصُّني ويخصُّك؟ كيف تقذفين حياتي بورقة!

سأمشي كالتائه في مفاصل غزَّة، أتحسَّس الجُرح من أرصفة الشوارع، أُشفق على انعكاس وجهي في عيون الآخرين، أعدُّ في كل دقيقةٍ ثلاثين ساعة، وأُلقي على روحي المُعذَّبة خِطاب التأبين..

أعيش مرحلة التحلُّلِ الطبيعي لبقايا المشاعر المعدومة، المعدومة بفعل فاعل، وأتخلَّص من ميراث أحلامي الجميلة، أُحرقها كما يفعل الهنود بأمواتهم.

هاكِ كلُّ شيءٍ قد مات، المجدُ للعادات والتقاليد والأفكار المُميتة، ولتذهب إلى الجحيم قُلوبنا المُثخَنة بألف طعنة، والمجد لأقنعة الآباء، الموت لنظرتهم المستقبليَّة الضائعة في ضباب المؤامرة..

www.ibtesama.com/vb

ولنَمت لحن قبل الأوان، ولنَمت من دون خوفٍ، ولنمت رفضًا لأفكار العبيد، ولنختصر عذاب الحياة..

ساعة الصفر لإطلاق رصاص النصّ صوب خافقي حانت، يموت القلب إذا تكدَّس الدم الفاسد، وها قد مات كبريائي.. مخاطرةٌ أم محاكمة، أن أمشي طواعيَّةً لقطع الخط السريع المزدحم؟

هل يحدث أن تشتهي أحدًا حدَّ الرفض؟ إنما فلسفة الدم والحب، أن تحتوي قلبًا سرعان ما يتضح أنّه قُنبلة!

السماء بنفسجيَّةٌ، تمشي ببطءٍ خانقٍ، وترشق غيومًا لا تُشبه عين الفنَّان.. الشجر مترهِّلٌ، والشمسُ لم تعدْ تُهذِّب إشعاعها.

هل يحدث أن يَقتُل المخيم حبَّ ولدٍ في عُلب المدينة؟ أو أن تقتُل المادة قلبًا تغالبت عليه الروح؟

هل يبقى اسم الحبيبة مثلما هو، ما لم ترتكب أيَّ محاولةٍ أو مخاطرةٍ أو حماقةٍ لأجل الحبّ؟ وهل الظنون كفيلةٌ بشنقِ آخر أنفاس الأمل؟ هل يُعقل أصلًا أن يطلب اللصُّ توفيقًا من الله؟

هذا الحب عنجهيَّة التناقضات، صوت الظالم البريء والفارس القاتل الذي يصفّق له الرعاع، إلى أن يركُلَهم من على كرسيِّ تاجه..

أنا اليتيم، أنا اللقيط، أنا خيط العنكبوت البائس..

ساعة الصفر حانت، ومعابر الترحيل لا تنظر إلى وراءٍ لا يحتوي أملًا ولا حبًا ولا نايًا..

www.ibtesama.com/vb

كتب يوسف هذه السطور، ثمّ أعاد طباعتها على الحاسوب، وقام بنشرها على مدوّنته الخاصة، التي يكتب فيها باسم مستعار لا يعرفه إلا مريم..

كانت هذه الرسالة بمثابة تفريغٍ لحالة الغضب التي عايشها من رسالة مريم، أحسّ بشيءٍ قليلٍ من الراحة.. راحةٌ تؤخّر الموت قليلًا لا تُلغيه.

ثم لا شعوريًا، حاول أن يتّصل بها مرة أخرى، وكالعادة تجيب اسطوانةٌ بالنيابة عن مريم:

الرقم الذي تحاول الاتّصال به غير متاح حاليًا..

***

اندفع مصطفى غاضبًا باتجاه أبي صهيب، ليُصاب برصاصةٍ في قدمه اليُمنى مخترقةً رُكبته، فوقع قبل أن يصل إليه، اقترب أبو صهيب منه وبصق عليه..

وأطلق رصاصةً ثانية على طرفه الأيسر، في فخذه، وببرودٍ مقيتٍ بدأ يتحدث معه:

– أنت من اضطرني لذلك، ليس ذلك فحسب بل ورّطتني بندمك، والآن أنا مُتهمٌ أمام التنظيم بالاعتداء عليك ومحاولة قتلك..

لكن إليك المفاجأة التي لم ولن تخطُر على بالك، تظنُّ نفسك الأذكى بيننا، إليك حصاد ذكائك.

www.ibtesama.com/vb

كانت الرصاصة الثانية قد أصابت مصطفى في وريده الفخذي: فتسبَّبت له بنزيفٍ مبررٍ حاد، وبدأ وجهه بالاصفرار نتيجة فُقدانه كميَّةً كبيرةً من الدم.

اراد ابو صهيب أن يُحضر حبلًا لكي يكتّف به مصطفى، فذهب لأجل ذلك، وحين عاد، رأى مصطفى حالتهُ ازدادت سوءًا، ودرجة حرارته تنخفض وأطرافه تزداد برودة، وملامحه يبدو عليها الغثيان، فقال: يبدو أنّي لستُ بحاجةٍ لهذا الحبل. وأكمل حديثه مع مصطفى قائلًا:

- لم تسأل كيف عرفوا بمكان أخي ورفاقه، رغم سريَّة المكان الذي تمّ وضعهم فيه، حيث لم يكن يعرف أحدٌ بتواجدهم غير أنا وأنت والقيادة العسكرية، متمثلةً بشخصٍ واحد.

المفاجأة في ذلك، أنّي أنا من بلّغتُ عن مكانهم، ليس ذلك فحسب، لقد سمّمتُهم، ومفعول السم يحتاجُ لُمدَّةٍ تتراوح من ٥ إلى ٧ أيام لكي يُودي بحياتهم، وبلحظةٍ، أرواحُهم تطير إلى الملكوت السماوي، بمعنى آخر موتهم داخل سجون السلطة كان مخطّطٌ له، لم يكن عبثًا، أي أن السبب لم يكن التعذيب.

أعرف أنّك الآن تتساءل لماذا أعترف لك بذلك، ببساطة لأني أريدك أن تموت وروحُك متعبة، ومعلقٌ في عنقك أرواحًا بريئة كثيرة. سأحرُص على أن تسمع ما يكفي لتعذيبك أكثر من وجع الرصاصتين.

www.ibtesama.com/vb

سأغيب عنك لحظة، لأجري مكالمةً هاتفيَّة وأعود. حاول ألاَّ تموت.

بدأت الرؤية تتلاشى شيئًا فشيئا، صار أقربَ إلى الإغماء. كان مازال واعيًا لما يقوله رفيقه أبو صهيب، فصار يتمنَّى الموت قبل أن يكمل أبو صهيب كلامه، وأصبحت صور الأطفال الثلاثة الذين كان طرفًا في موتهم تحوم حوله، تحاسبه، يسألونه بضحكةٍ بريئةٍ، "ليش قتلتنا يا عمو؟"

شعر بأنَّ الدُنيا تضغط على عُنقِه، تريد أن تعذِّبه بالاختناق فقط، لكن لا تريد له الموت.. تريد أن تجعله يعيش بسرمديَّة العذاب النفسي.

بعد أقلَّ من دقيقتين، عاد أبو صهيب وأكمل حديثه:

– أعتذر عن التأخير، لكن كانت مكالمةً مهمة لها علاقة بما سأقوله لك. أريد أن أذكِّرك بأفضالي عليك، لقد استسمحتُهم كثيرًا كي لا يقتلوك، لأنّي كنت أحبُّ صداقتك حدَّ التسلية. لكن كما أنّك لا تعترف بأخيك، أنا أيضًا.. لكنّي أكثر وحشيَّةٍ منك، فأنا لست مبقيًا لا على أخٍ ولا على صديق.

إليك مفاجأةً أخرى، صحيح أنَّ أجهزة السُلطة تعتقل أحيانًا الكثير من شباب التنظيم، ونحن نقوم بالاعتداء على مراكز الشرطة وتحريرهم. لكن هل سألت نفسك لماذا يتمُّ اغتيالهم من قبل الطيران الإسرائيلي بعد تحريرنا لهم؟ ببساطة، يتمُّ تسريب بعض المعلومات لأجهزة السُلطة عن بعض المطلوبين للموساد الإسرائيلي، فلا تجد

www.ibtesama.com/vb

السلطة سبيلًا لحمايتهم غير الاعتقال! ثمّ يتداول الناس الأخبار التي تتعلّق بهم على هذا النحو "الشهيد الذي اعتقلته السلطة، اغتالته اسرائيل".. عصفورين بحجر..

والآن فكّر، كم من معتقلٍ أخرجناه من سجون السلطة واغتالته الطائرات الإسرائيلية؟ يُؤلمك هذا؟ أعرف أن هذا الكلام يقتلك أكثر من الرصاص، فأنا أدرى من غيري بمعدنِ قلبك، ويُسعدني جدًا أن أكون أسوأ من عذاب القبر عليك.

يا رفيقي، يا ملاكي الحبيب، إليك المفاجأة الأخرى، أسطوريّةٌ ستكون بالنسبة لك. التقارير التي قُمت بإعدادها لعمليّة اختطاف العقيد نبيل كانت غير حقيقيّة. لقد كنت متعمدًا أن تتمّ العمليّة في تلك الساعة، كنت أعلم أن السيّارة السوداء تقلُّ أبناء نبيل وليس العقيد بذاته. لم ينتبه أحدٌ منكم لذلك، أيُّ عقيدٍ هذا الذي يذهب إلى عمله الساعة الثامنة؟ دوام المسؤولين عامة الساعةُ العاشرة، هذا شيءٌ بديهيّ، أرأيت كيف يغدو الذكاء غباءً؟

ليس ذلك فحسب، إطلاق النار حينذاك لم يكن من السيّارة السوداء، بل من شخصٍ في الناحية الأخرى، تمّ استئجارُه لكي يبدو الإطلاق من داخل السيّارة. وبما أنّ سائق السيّارة والأطفال عُزّل، ليس كما دونت لك في التقرير، فلقد أغدقنا أنا وأنت سويًا بالرصاص على السيارة، وكنت أتعمّد قتل الأطفال.

www.ibtesama.com/vb

بمعنى آخر أيضًا، اغتيال الأطفال كان مُخطَّطٌ له، وإطلاق النار من الطرف الآخر كانت مجرَّد تمثيليَّة لإقحام فريقنا بمبادلة إطلاق النار، كما أشرتَ في الخِطة البديلة.

حتى الشباب الذين قاموا بتعطيل كاميرات المراقبة، لم يقوموا بذلك، لم يكن هناك أصلًا في الشارع كاميرات مراقبة، أيُّ شارعٍ في غزَّة ذاك الذي يحتوي على كاميرات مراقبة؟!

أتعلم ماذا؟ هم قاموا بوضع كاميرا مراقبة بحيث تصوِّر الجريمة كاملة، بالتحديد تصويرك أنت وباقي الفريق. إليك التفسير، الغرض من كلِّ هذه العمليَّة شيءٌ في منتهى اللذَّة والفتنة! سيأتي يومٌ تُنشر فيه الجريمة كاملة في وسائل الإعلام، وتخيَّل حجم الفتنة حينها، إسرائيل لم تعد ترغب بأن تُحارب بأسلحتها، ولا ترغب بأن ينتقل القتال إلى داخل أراضيها، تُريدُكم أن تقضوا على أنفُسِكم بأنفسكم، دون أيِّ تدخلٍ منها، هذا هو الأسلوب الجديد لجيش الدفاع الإسرائيليِّ في محاربة الفلسطينيِّن.

اقترب أبو صهيب من مصطفى وتحسَّس نبضه، وقال:

– ما زال لديك بضعُ أنفاسٍ لتسمع المزيد، قبل أن يصحَبَك عزرائيل للجحيم. أنا أعمل مع جهاز الموساد الإسرائيليِّ منذ عشرِ سنوات، نعم منذ عشر سنوات تخيَّل؟

كنتُ أشفع دائمًا لك، كان هناك أمرٌ بقتلِك منذ مدة، فاقترحت عليهم استغلالك، وقاموا بإعطائي هذه العمليَّة، وأخيرًا بعد ثلاث سنوات استطعت بنجاحٍ تنفيذ هذه العمليَّة، ستسألني ماذا سأستفيد؟

www.ibtesama.com/vb

إليك الخبر الذي سيقطف آخر أنفاسك: سيأتون خلال أقلّ من خمس دقائق، سيقلّوني من هنا إلى داخل إسرائيل، إلى قرية الدّهنيَّة، حيث سأكون بذلك مواطنًا إسرائيليًا: أنجزت مُهمتي: وسيفخر أبنائي بوطنيّتي، وسأتحوّل هناك لبطل، ولديَّ معاشٌ خاص، وسأعمل في التجارة الحرة هناك..

سمع أبو صهيب صوت جيب أمام الباب، وقال:

- ها هم قد وصلوا في معادهم بالظبط. والآن سأودعك. ولأننا تعلمنا في أجهزة الموساد ألا نثقُ في الاحتمالات، بالرغم من عدم وجود احتمال لتعيش بعد هذا الكم الهائل من نزيف الدم، لكن هناك فرصة واحدٍ بالمائة لأن تعيش، وواحد في هذه الحالة لا يُناسب أعمالنا، لذلك يُسعِدني أن أقضي على هذا الواحد.

وأطلق رصاصتين، واحدة في مُنتصف رأسه، والثانية في قلبه، ثم خرج بالجيب مع اثنين من المتعاونين مع الموساد الاسرائيليّ، وقاموا بتوصيله إلى الحدود، ثم جاءت سيّارةٌ من الجانب الآخر واستقلّها أبو صهيب إلى قرية الدُّهنيَّة، حيث كان أبو صهيب يملك آنفًا بيتًا هناك.

تُعتبر قرية الدهنية، مأوًى للمتعاونين أمنيًا مع إسرائيل، تحتضنُ فيه إسرائيل كافة عملائها الذين تنتهي مهامُهم مع أجهزة الموساد، وتمنحهم إسرائيل الجنسيَّة الإسرائيلية، بصرف النظر عن الجنسيَّة التي يحملونها.

***

www.ibtesama.com/vb

مرَّ يومان على نشر يوسف تدوينَتِهِ الغاضبة. كان اليومان كافيين لأن يصرفا الغضب عنه، ويعودان به إلى مزيج العقلِ والعاطفة.

حدَّث نفسه بصوتٍ خفيض:

أنا بقسوَة حروفي تلك لست إلا عاشق شرقي، يمتهن احتقار كلّ ما يخسر، أنا لست وفيًا بما فيه الكفاية!

أثارت هذه الفكرة غصّته، فذهب مسرعًا إلى الحاسوب، ثم دخل على التدوينة بنيَّةِ حذفها، فوجد تعليقًا من مجهول:

لن تغدو إنسانًا، ما لم يتحوَّل قلبُك إلى أنثى..

كان على يقينٍ أنَّ هذا التعليق كتبته مريم، وعلى يقينٍ أكبر أنّه ارتكب خطأً فادحًا بنشر هذه التدوينة، لكنّه شعر بالأمان، فما زالت مريم تبحث عنه، تفكّر به.. ما زالت وفيّةً رُغم أنَّ ما أصابها ليس بالسهل..

ما لم نفكّر بالتخلي يومًا عن حبّنا، فلن ينجلي هذا الحبُّ أبدًا.

أجل أحببتُك، وحاجتي لحبِّكِ أشدُّ من حاجة الدمشقيِّ لشذى الياسمين. تذكّر اليوم الذي لم يمضِ عليه كثيرًا، استحضرت خيالاته وجودَ مريم، شعر أنّه اقترب من أُذنها، وهمس وهو يتنفّسها من بين جدائلِ شعرِها الحرّ.

و قال لها من جديد: لن أتخلى عن ذاتي يا ذاتي، مهما قسوت بفطرتِك على خافقي، سيظلُّ حبُّنا ينمو رُغمًا عن الكل، سينمو كالعشب فوق ركام مدينةٍ، ورغم أنف الثعالب..

www.ibtesama.com/vb

نفترِقُ الآن، ولن تتفتَّت أبديَّتنا في الحب، سيظلُّ أملنا يقاتل كالطير، وسيستَمرُّ في التحليق عكس الريح والعواصف، غير مبالٍ بريشِهِ الذي يتطاير..

ثم قام يوسف بحذف تدوينته، ليشرَع بكتابة تدوينة جديدة، لكن الوقت لم يُسعفه، فلقد جاء صوتٌ من بعيدٍ يقسم ظهر خُلوته، قَرعُ جرسِ البيت، يحمل أخبارًا جديدة.

يوسف.. البقية في حياتك، أخوك قد مات مقتولًا!

لوهلةٍ ظلَّ صامتًا، كما لو أنّه نسيَ أنَّ لديه أخًا. لم يعرف كيف يتصرَّف من جديد، وجد رفاق أخيه يصطحبونه إلى المُستشفى ليُلقيَ نظرةً أخيرةً على أخيه، وليُصلُّوا عليه في المسجد، ثم ليذهبوا إلى المقبرة ويدفنوه.

شعر بشيءٍ من العجز مرةً أُخرى، لا يقوى على أن يحزن، ورابطة الدم تحثُّه على الحزن، لكنَّه بكى، بكى شفقةً على نفسه، ليس حزنًا على أخيه.

كانت كل القصص التي رواها رفاق أخيه حول موته تصلُ إلى إدراكه مُفسَّرة وجاهزة، لم يكن بحاجةٍ لطاقةٍ يفكِّر بها، فمصطفى في نظرهِ لم يمت شهيدًا، بل مات كالأضاحي والقرابين. صار يُشفق على أخيه محزونًا على نهايته، مقتل أخيه كان القشّة التي قسمت ظهر البعير.

www.ibtesama.com/vb

أدرك أنَّ هُناك علاقةً لا يستطيع أن يُنكرها، علاقةً بين مقتلِ أخيه واغتيال أبناء عمِّ مريم. وفاة أخيه جعلته يتفهَّم شُعور مريم مرةً أخرى، مريم الأنثى التي لم تتخلَّ عن أهلها، كما لم تتخلَّ عنه، لكنَّها الظروف هي التي تستحقُّ أن يَمقتاها..

تمنى لو أنَّه يراها ليعتذر، تمنى لعينيه أن تبكي حتى العمى، كل هذا أثار عزيمته على الرحيل.

مرَّ أسبوعٌ على مقتل أخيه، كان يحاول الوصول إلى مريم، لكنَّها أحكمت إغلاق كل الطرق في وجهه، جعلَهُ ذلك يستعجل إجراءات السفر.

قبل هذه الأحداث، كان قد قدَّم طلبًا للحصول على تأشيرةٍ لدخول جمهوريَّة مصر عن طريق مكتبٍ سياحي، ذهب إلى ذلك المكتب يستفسر عن مصير التأشيرة، كانت جاهزة في المكتب منذ يومين، وبوسعه أن يسافر في أيِّ وقتٍ خلال أسبوعين.

سأل يوسف موظف المكتب: هل يمكنني السفر غدًا؟

رد الموظف: نعم أستطيع أن أتدبَّر لك الأمر، لدينا موظف في المعبر يستطيع أن يسهِّل لك السفر، لكن سيكلِّفك ذلك مبلغًا من المال..

أبدى يوسف موافقته، وأعطاه عنوان منزله، كي تأتي سيَّارة المكتب في الصباح وتُقلُّه من أمام منزله إلى المعبر. كان يوسف قد أوكل إجراءات بيع بيته لمحامٍ كان زميلًا له في المدرسة.

www.ibtesama.com/vb

مع الساعات الأولى للصباح، صار يوسف في قاعة الانتظار في الجانب الفلسطيني من معبر رفح، مُمسكًا بهاتفه المحمول، محاولًا الاتّصال بمريم، ويتمنى بأعماقه أيَّ معجزة تغيِّر مسيرة أحداث هذا اليوم. تمنى أن تظهر له كما في الأفلام، تقول: عُد...لا تسافر..

والآن، ها هو يفتح عينيه مجدَّدا، ليرى نفسه صاعدًا إلى الحافلة استعدادًا لدخول الأراضي المصريَّة. شعر أنَّه يُلقي بنفسِه في حافلة للحزن، يتساءل بحزن:

لماذا؟ إلى أين؟ ومن أجل ماذا؟ وكيف؟... هل أخطأت؟

آه.. ألا يوجد أحدٌ يمسك يديَّ ويأمرني؟ يا أصدقائي فليأتِ أحدكم ويصرخ في وجهي قائلًا كفَّ عن الهروب، فلست بحاجةٍ إلى السفر.

لكن لقد حلَّ الرحيل.. تحرَّكت الحافلة، وصار أمام بوابة رفح المصريَّة، لا يفصله عن الهروب سوى عشرُ دقائق على الأكثر. شعر أنَّه تورَّط بوداع نفسه.

كانت تجلس إلى جانبه امرأة عجوز، تضع سماعات الهاتف على أذنيها، نظر إليها بابتسامةٍ وذهولٍ في آن، فابتسمت له المرأة، وقالت له بصوت مرتفع: أتريد أن تسمع معي؟

فقال لها: يسعدني ذلك يا جدتي.

فردَّت عليه بعصبيَّة ساخرة: لستُ جدتك، انظر لوجهك، كآبةٌ عن ألف سنة.

www.ibtesama.com/vb

ابتسم يوسف لردِّها، وتناول السماعتين، وهي تقول وفي عينها نظرةٌ قدسيَّةٌ للحياة: استمع لهذه الأغنية، ستزيح عنك همومك لتَعبُرَ بك مع الحالمين...

وضع السماعتين على أذنيه، كانت الأغنية لفيروز، مرةً أخرى فيروز، الصوت الذي لم يتخلَ عنه يومًا. اتّكأ على الكرسيِّ، سند رأسه إلى الشباك، وأغمض عينه، كانت فيروز...:

"في أمل... إيه في أمل

أوقات بيطلع من ملل

وأوقات بيرجع من شي حنين

لحظة تَ يخفِّف زعل

وبيذكّرني فيك لون شبابيك

بس ما بينسّيني شو حصل"

تحركت الحافلة استعدادًا لدخول الأراضي المصريَّة.. لم يشعر يوسف بذلك، لقد كان غارقًا بتأمُّل مفردات الأغنية، وصوت فيروز يلامس زغب قلبه.

دخلت الحافلة مترًا ونصفًا إلى داخل الأراضي المصرية، لكنَّها توقّفت فجأة. أحدٌ ما هنا، لا يعلم أحد ما سبب التوقف، هل هي إشارةٌ من جنديٍّ مصري، أم من مسؤول في الجانب الفلسطيني.

www.ibtesama.com/vb

فُتح باب الحافلة الأمامي، لم يُبدِ يوسف لذلك أيَّ اهتمام، دخل أحدهم الحافلة، لم يستطع يوسف أن يعرف من الذي دخل، وهل هو رجلٌ أم امرأة،، فقد صعد من الباب مباشرة ليتحدث مع سائق الحافلة

كلُّ هذا لم يثر شيئًا من اهتمام يوسف، لذلك بقي ساندًا راسه على النافذة، مأخوذًا بصوت فيروز.

علا صوت السائق مناديا: هل هناك أحدٌ اسمه يوسف، يوسف لو سمحت تفضّل إلى هنا.

لكن يوسف لم يسمع شيئًا، فقد كانت السماعتان تصمّان أُذنيه عن أيِّ صوتٍ خارجي، لكنَّ الذي دخل بدأ ينادي أيضا، ويبحث عن يوسف بين الركاب.

يوسف، يوسف، يوسف..

صارت العجوز تضحك بعنفوانٍ كالمراهقات، أثارت ضِحكتها انتباه جميع من في الحافلة، وفجأة بدأت تصفّق ثم بدأت تلوّح بيديها وتغني:

"في أمل... إيه في أمل، أوقات بيطلع من ملل"

في أمل......

www.ibtesama.com/vb

التحويل لصفحات
فردية والمعالجة
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

سنجلس أحراراً على رصيف شارعٍ، في مفاصل بلادي، أسرق لك وردةً حمراءَ من حديقة الجار، لن يمانع.. أعرف ذلك.. قال لي مرة: "جمال الورد هذا كلُّه صدقةٌ جاريةٌ على روح زوجتي".

يتجرأ الحمام ويجلس بالقرب منا يلتقط الحب..
أقول: "أريد أطفالًا بعدد هذا الحمام"، تضحكين وتُسَمّين كلَّ حمامةٍ كأنّها ابنتك، كأنّها ابنك.. حبيبتي.. غنّي!

دقائقٌ من الخجل ثم سرعان ما يطربُني صوتُك، أرقص التانجو مع صوتك الأرجنتينيّ، وينتهي الحلمُ بيديك تطوّقان ذراعيّ وقِبلةٍ وتصفيقٍ حار..

"من أين جاء كلُّ هذا الجمع!" تقولين لي بهمس..
أقول: "أبناؤك يُفشونَ سرَّ الحب... ، هذا الحمام رسول الحب"..

....



دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE

www.ibtesama.com/vb



www.ibtesama.com/vb